عمرو ممدوح
رواية
البارودية
أرض الخطيئة
للكبار فقط
+18

رواية للكبار فقط

رواية

البارودية

"أرض الخطيئة"

بقلم : عمرو ممدوح الزعفراني

19/9/2022

إهداء

إلى ذلك الطفل بداخلي والذي لازال يبحث عن الحقيقية.

إلى كل هؤلاء الذين يريدون الحقيقة عارية بدون مواربة
بدون رتوش يريدونها كما هي..

إليك أنت أيها القاريء العزيز اختلفت أو اتفقت معي
لكنها الحقيقة كما هي أضعها بين يديك..

عمرو ممدوح

مقدمة

الشوارع تحمل نفس الأسماء لكن القليل من بيوتها يحتفظ بطابعه القديم, حتى تلك الوجوه الواجمة التي تطالعني كلما غاصت قدماي في الحواري العتيقة والأزقة المزدحمة ليست كتلك الوجوه التي عاهدتها فيما مضى!
عجلة الزمان لا ترحم فهي قاسية كقلب الجعار!
لعلك لم تسمع هذا الإسم يومًا ما لم تكن من أهالي البارودية القدامى, أو قد تكون ارتدت ذات مساء أحد مقاهيها..
- علي الجعار- ذلك الإسم الأثير الذي ما إن يذكره أحد حتى ترتجف الأفئدة وتتصبب الجباه عرقًا, رعبًا أو لوعة أو كلاهما!
للزمان عجلات لا تعرف التوقف ولا تأبه بعدل أو رحمة..
يتسلل الليل خلسة خلف شمس المغيب مع نهاية نهار صيفي حار ورائحة الرطوبة المنبعثة من تلك الجدران القديمة من حولي تعبق جو حارة عبود التي وجدت نفسي أتأمل بيوتها المتلاصقة, ربما هي الوحيدة بين شوارع البارودية التي احتفظت بمعالمها القديمة كما عهدتها في صباي وكأنما قد تجاوزها الزمن إلا من شيخوخة واضحة أصابت كل حجر فيها إلا أن الوجوه هنا اختلفت عمن عرفتهم لكن حنين غامض يقودني لأجتاز هذا الشارع وعيناي تجوب الشرفات والأبواب علهما تقعا على وجه مألوف أو هدف تقودني إليه قدماي دون وعي مني, حتى وجدته أخيرًا رغم انهيار جزء لا بأس به لكنها لازالت تقاوم شاهدة على ما كان وما هو كائن كذلك المنزل الذي انهار معظمه وقد استحال إلى مكان لتجميع القمامة إلا أنه في مخيلتي لازال كما عهدته قائمًا وتتربع أمامه المصطبة التي وجدتني أجلس على أشهر مصطبة لأطفال البارودية!
ما إن لامستها حتى شعرت براحة غريبة راحة مسافر حط رحاله في وطنه أخيرًا بعد اغتراب طويل ضل فيه طريقه وغابت شواطئه حتى لاح له أخيرًا بر أمان..
أتنفس الصعداء وأنا أتحسس ما تبقى منها في حنين عجيب فأبتسم رغمًا عني وأنا أراه بجسده النحيل رغم عضلاته البارزة وقامته القصيرة وسيجارته المحلية التي لا تفارق فمه وإلى جواره كوب الشاي الأسود المغلي يتكيء بظهره إلى جدار البيت ونحن الصغار نشكل نصف حلقة وهو ينظر إلينا بوجهه الأسمر البشوش فيلوك سيجارته بين شفتيه ويروي حكايات لا تنضب ثم يعلق على أحدنا ساخرًا فننفجر ضاحكين ببراة في نفوسنا حتى يشتد الضجيج فيشعر بالإزعاج فيصرخ فينا
"يلا يااابن الكلب منك له غور من هنا"

وهو يهجم علينا متوعدًا, فنهرع هاربين وضحكاتنا تجلجل في أنحاء الشارع.
كنت دائمًا أنظر خلفي بعد هذا المشهد الساخر لأنظر إلى وجه محفوظ, وتلك التقطيبة التي لا تفارق حاجبيه رغم روحه الساخرة فتعكس حزنًا عميقًا وجرحٍ غائرًا بين أضلع الشاب ذو الثلاثين عامًا فأجده يضحك ساخرًا من هذا المارثون الطفولي المثير للشفقة ثم يعود إلى كوب الشاي والسيجارة ويطلق تنهيدة عميقة ثم يجفل بجفنيه وعلى شفتيه ابتسامة غريبة وكأنه يرى في غفوته كل سعادة الدنيا ولعله يعيش في أحلامه فيجد تلك السعادة المفقودة من حوله في واقعه..

لم تكن أحلام محفوظ سرًا بل كنت على دراية بمعظمها فكونه وحيدًا لا أخوة له جعلني رغم فارق عمرينا أقرب إلى صديقين.
محفوظ طيب القلب, لا يعرف عن البغضاء شيئًا ربما ليست جزء من قاموسه على الإطلاق, إلا أن قاموسه لم يخلو من حزن دفين وإنكسار غائر بين ضلوعه!
يقطن محفوظ الباهي أو محفوظ ابن الفران كما كان يعرفه الجميع مع والدته الأرملة العجوز التي كادت تفقد بصرها تمامًا على أثر السحابة التي غطت قرنيتها ورغم ذلك لم تترك يومًا ماكينة الخياطة العتيقة وإن كان معظم زبائنها قد فارقوها بعد أخطاها الجمة وافس‌ادها لثيابهم بسبب ضغف بصرها فأصبحت تنتظر الأسابيع والشهور حتى تأتيها احداهن بثوب واسع لتضيقه أو فستان طويل لتقصره أو سروال مفتوق لزوج قد قتله الشقاء..
هذا دأبها منذ توفي رمضان الباهي زوجها تاركًا خلفه لحمة حمرا وزوجة شابة لا تملك من حطام دنياها سوى ماكينتها وأربعة جدران متهالكة يطلق عليها مجازًا منزل
مكون من طابق وحيد مسقوف بالخشب غرفتين و (وسعة) وهي بهو صغير مربع غير مسقوف وضع فيه موقد الكيروسين النحاسي وحلة لا يمكن معرفة كنهها من أثر ذلك السواد الفاحم الناتج عن دخان الكيروسين وعدة أطباق منبعجة غير مستوية تثير الاشمئزاز.
البيت يخلو من أثاث يذكر, سوى سرير بأعمدة في حجرة ال-أم يصدر صرير مزعج فكأنه يستغيث كلما لمسه أحدهم, ومرآه يعلوها الصدأ فلا تكاد تعكس صورة, أما الحجرة الصغيرة فكل ما فيها (كنبة) خشبية يتخذها محفوظ فراشًا له وطاولة متهالكة قد تشوهت معالمها من الوصلات التي اضيفت إليها لاحقًا في محاولة فاشلة لمنعها من الإنهيار, وخزانة من الصاج استخدمها كخزانة ملابس فارغة تقريبًا, السروال والقميص اللذان يملكهما ملقيان دومًا على الطاولة حين يكون مرتديًا جلبابه الكستور ال‌متسخ دومًا وأبدًا تملأه البقع الغائرة في أنسجته ويستخدمه كمنامة وأحيانًا أثناء الجلوس على مصطبته فترة العصاري ..
فتح محفوظ عينيه وقد تجاوزت الساعة الثانية عشرة ظهرًا على صوت خطوات أمه والتي فيما يبدو أنها اصطدمت بشيء ما عند دخولها :
"صباح الخير ياأمي"
قالها وهويتثائب كخرتيت جائع لكنها نظرت إليه ومصمصت شفتيها وتركته

وهي تغمغم:
"الفول والعيش على الطبلية"
يعلم جيدًا أنها ليست اضبة منه بقدر ما هي حزينة على ما آل إليه وحيدها من حال, رغم ضعف بصرها لكن تلك النظرة الكسير في عينيه كانت واضحة تمامًا لها لا تكاد تخطئها أبدًا.
بتكاسل وضع قدميه في شبشبه واتجه إلى الطبلية الخشبية المستديرة المتهالكة كبقية المنزل بكل ما يحتويه, فأمسك برغيف يابس فزفر في ضيق إلا إنه قطع لقمة وغمسها في طبق الفول ليلوكها بصعوبة وكأنها تأبى أن تنزل إلى جوفه فيترك الطعام ويتناول كوب الشاي الذي كاد يبرد فيرشف منه رشفة ثم ينظر إلى إلى أمه العجوز التي تربعت جالسة على الأريكة الوحيدة في الوسعة تمسك بإبرة لترتق فتق في قطعة ثوب قديمة وقال:
"مش هتسيبك بقى يا أمي من شغل الخياطة اللي ضيع عنيك دا؟!"
نظرت إليه ومصمصت شفتيها قبل أن تقول بصوت منخفض :
"وهناكل منين إن شاء الله وانت زي العوانس لا شغلة ولا مشغلة؟"
دون أن يعلق أشعل نصف سيجارة أخرجها من جيب جلبابه وأخذ ينفث دخانها وهو يتابع وجه أمه التي عادت تنكب على الإبرة والخيط تمارس عملها ودمعة طارئة تتسلل من بين جفنيها..
كعادته استبدل ثيابه ودون أن يلتفت رفع صوته:
"يا أمي أنا خارج"
لم ينتظر إجابة فأوصد الباب الخشبي الذي أظنك عرفت مسبقا أنه متهالك..
بين حواري البارودية وضع يديه في جيبيه وسار متأنيا في مشيته يركل الأحجار مطأطيء الرأس كمن يبحث عن شيء..
لم يكن يعلم إلى أين يذهب فليس لديه أصدقاء (ياسر الأسود) كما كان يلقب بسبب بشرته الداكنة, قد رحل مع أسرته منذ عامين إلى النوبة بعدما أحيل والده العامل بالسكة الحديد إلى المعاش, وها هو قد صار وحيدًا, حتى أمه لم تعد تتحمله بما هو فيه..
يسير بلا هدى ولا هدف حتى الشوارع لم تعد تتحمله ولم يعد بوسعه عقد مجلسه القديم مع الصبية على المصطبة فمحفوظ الذي يعرفه الجميع قد ضل السبيل ولم يعد مطلقًا منذ اليوم إياه, حتى هو نفسه لم يجد نفسه لقد ذهب بلا رجعة..
الشمس الصيفية الحارقة في الظهيرة لم تمنعه من التجول والعرق ينساب من بين وجنتيه والشوارع الخاوية ساعات القيلولة ملاذًا طيبًا له فلم يعد يستطيع أن يراه أحد أو أن يرى هو أحد ولهذا قادته خطواته خلف المعسكر

القديم حيث تقع غابة كثيفة من أشجار شوكية قزمة لا تبلغ طول أكبرها قامة رجل متوسط الطول تنمو في تربة حمضية تميز هذه المنطقة الأثرية المهجورة ليجد نفسه يتوغل بين تلك الأشجار ليشعر أخيرًا براحة مزعومة حيث لن يقابل احد, فالمنطقة مخيفة حقًا والاهالي يتجنبونها طوال الوقت, لكنه أرهف السمع فجأة ليستمع صوت حفيف الأشجار مما ينبئ بحركة ريبة :

"مين؟....مين هناك؟"

تحفزت عضلاته واختلج قلبه, فهل ما حدث لم يكفي فقرروا قتله مثلًا؟ هو ليس بعيدًا عن غدرهم ونذالتهم, لكنه سرعان ما تنفس الصعدا عندما طالع وجهي الطفولي:

"هوانت يا ابن الجزمة؟..نشفت دمي!"

قالها وهو يرسم ابتسامة استحالت إلى حالة حزن يعكر أي صفو..

أجبته قائلًا:

"شوفتك وانت ماشي عرفت إنك هتيجي هنا"

ربت على كتفي قائلا:

"ماخوفتش تيجي لوحدك الحتة المقطوعة دي؟!"

نظرت إلى عينيه مباشرة فلسبب ما لا أعلمه كنت فيه بل أطمئن بالقرب منه, ورغم ما حدث ويعلمه الجميع أعلم إنه قادر على بث الطمأنينة في نفسي فشددت قامتي معتدًا بنفسي وأنا أجيبه قائلًا:

"أنا راجل والرجالة مش بتخاف"

ضحك بشدة حتى دمعت عيناه وأمسك بمعصمي وجذبني إليه ونظر إلى عيني مباشرة منحنيا ليكون وجهينا متقابلين وأنفاسه تلفح وجهي وقال:

"مين قالك كدة؟"

كان في الحقيقة على معصمي بشدة فشعرت للوهلة الأولى بالخوف من تلك النظرة الثاقبة إلى عيني, ويبدو إنه لاحظ ذلك الشعور المتسلل إلى خلاياي فخفف ضغطه عن معصمي حتى ألفته وهو يقول:

"الرجالة هم أكثر حد بيخاف"

سألته ببراءة طفولية:

"وإنت بتخاف ياعم محفوظ؟!"

تنهد بعمق وقال:

"أنا أكثر واحد في الدنيا كلها بيخاف"

"خايف من المناخلية؟!"

ثقبتني نظرته أثر جملتي الأخيرة قبل أن يطأطأ ببصره إلى بوز حذاه

المثقوب وقال كأنه يحادث نفسه:
"بخاف من كل حاجة, من اللي فات ومن اللي جاي, من اللي حصل واللي بيحصل واللي هيحصل, ساعات بخاف أنام وبخاف أحلم حتى الضحكة بخاف أضحكها!"
طفلًا أنا لازلت فلم أعي ما يقول فكررت سؤالي بعناد طفولي مستفز:
"يعني بتخاف من المناخلية والجعار؟"
رمقني بنظرة لم أفهمها إلا إنه اندفع يغوص بين أشجار كثيفة للحظات قبل أن يعود مشيرًا إلى شيء دقيق بين إصبعيه, تأملتها جيدًا لأرى بيضة صغيرة الحجم جدًا بحجم عقلة أصبع وقال:
"إيه رأيك في البيضة دي؟"
مدت يدي محاولًا أخذها وأنا أضحك مبتهجًا:
"الله بيضة صغيرة شكلها جميل"
أبعدها عني وقال:
"إستنى أوريك حاجة"
إقترب من صخرة صغيرة كسر البيضة عليها حتى سال منها كم صغير من السائل الشفاف وبين هذا السائل كانت تسبح خيط أسود صغير يشبه دودة صغيرة والتي ما إن رأيتها حتى تراجعت إلى الخلف وجلأ فقال:
"عارف إيه دي؟"
هززت كتفي وقلت واثقًا:
"دودة"
قال بلهجة محذرة ونظرة تحمل الوعيد:
"دا ثعبان"
ما إن سمعت الكلمة حتى تصببت وجنتي عرقا وابتلعت ريقي بصعوبة, فلاحظ توتري فقال:
"شوفت خوفت إزاي لما عرفت إنه ثعبان, مع انه لسة حتة خيط اسود مالوش معنى! لكن لو سيبناه كان في يوم من الأيام هيبقى تعبان مليان سم يبخ سمه على خلق الله"
تراجعت هلعًا وأنا أتصور تلك العلقة الصغيرة ثعبانا يسعى يدس أنيابه السامة بين أوردة شخص ما!
ضحك محفوظ وهو يرى الخوف في عيني فهمس قائلًا:
"شوفت خوفت إزاي مجرد ما عرفت إنه ثعبان مش ممكن تثق فيه حتى وهو لسة في البيضة؟! الرجالة لازم تخاف لأن كل حاجة حلوة جواها ثعبان ممكن يقتلك بسمه"

صمت لحظة وهو يتابع نظراتي الجوفاء التائهة التي لا تعي معظم ما يقول قبل أن ستدرك قائلًا:
"يللا بينا علشان أروحك"
استدار عائدًا إلى خارج الأحراش وأنا خلفه دون حرف واحد فلسبب ما كانت كلماته تثير في نفسي مشاعر لا أعرفها ولم أعهدا, حتمًا ليست كلماته فأنا لم أفهم منها حرفًا واحدًا ولكن تلك النبرة المختفية خلف حديثه لم يكن من يتحدث محفوظ الذي عهدته منذ صغري والذي اعتبرته صديقي ومعلمي يومًا كان بحق شخص أخر يحمل ذات الملامح لكنه ليس سوى هيكل فارغ قارب تقاذفته الأمواج حتى ألقت به على الساحل حطام انسان..
أعلم رغم طفولتي أن ما حدث كان كفيلًا أن يزيح الجل المسمى محفوظ عن موضعه أن يقتلعه من جذوره تمامًا..

****

"السلام عليكم يا أخ محفوظ"
التفت محفوظ إلى مصدر الصوت ليجده بلحيته الكثة وشاربيه الحليقين بجلبابه الأبيض القصير وعمامته البيضاء المعقوصة غلف رأسه..
"عليكم السلام ورحمة الله..خالد أبوذراع؟!"
وخالد ابو ذراع لمن لا يعرفه واحد من شباب الحي سنه تقريبًا كعمر محفوظ إي أنه في بداية العقد الرابع من العمر وكان مزاملًا لمحفوظ في مدرسة التجارة الثانوية الا انه لم يحصل ابدًا على الدبلوم بل كان معروفًا بالفشل أقرب إلى الأمية منه إلى إرتياد المدارس ومحفوظ يذكر له جيدًا تنمر المدرسين عليه لعدم إجادته للإملاء أو القراءة بشكل صحيح...
أجابه خالد:
"أيوة خالد يا محفوظ"
لم يكن محفوظ في مزاج يسمح له بالحديث مع أحد, لكن التغيرات التي طرأت على خالد مفاجأة له, فهو أعلم الناس بخالد وحاله وحالته وكذلك بأخلاقه التي لا يختلف على سوءها إثنان..
"بس إيه التغيير دا إنت انضميت للجماعة إياهم ولا إيه؟"
رسم خالد ابتسامة بشوش على وجهه ولاك عود السواك بين شفتيه للحظة وقال:
"ربنا هداني للطريق المستقيم..عقبالك يامحفوظ"
"ربنا يهدينا جميعًا ياسيدي"
اقترب خالد من أذنه كمن يهمس إليه بسر قائلًا:
"طيب ما إحنا فيها إيه رأيك تيجي النهاردة تصلي معانا المغرب في مسجد الجمعية وتحضر درس دين؟"
فكر محفوظ قليلًا:
"وماله.. في حد يكره يتعلم دينه إن شاء الله أحضر"
ارتسمت على وجه خالد ابتسامة رضا:
"زي ماتوقعت بالضبط انت جواك شاب طيب وملتزم"
"الحمد لله.. إلا وقولي أنت بتشتغل إيه اليومين دول؟!"
"نحمد ربنا على كل حال...أنا أعمل في الدعوة"
رفع محفوظ حاجبيه دهشة وقال:
"في الدعوة! وهي الدعوة شغلانة؟!"
تحولت ملامح خالد البشوشة إلى الصرامة دفعة واحدة وقال:

"الدعوة إلى الله عمل له أجر في الدنيا وفي الأخرة بإذن الله"
تنحنح محفوظ حرجًا وقال:
"لكن أعذرني ياصاحبي إنت يعني.أحم احم..أقصد يعني تكاد تكون مش متعلم, كمان كنت عيل صايع, إزاي يعني فجأة اتحولت كدة"
"إنك لا تهدي من أحببت والله يهدي من يشاء يا أخ محفوظ"
"ونعمَ بالله طبعًا, بس إنت تعرف إيه عن الدين أصلًا ولحقت اتعلمت إمتى علشان في يوم وليلة تتكلم وتفتي في الدين!..إعذرني يعني مش كل واحد لبس جلابية بيضا قصيرة وربى ذقنه يبقى شيخ وعالم يقول مواعظ"
بدا الغيظ وضيق الصدر يظهر على وجه خالد ليقول بعصبية:
"زي ما أنت يامحفوظ, تعشق المجادلة والتدخل فيما لا يعنيك"
ضحك محفوظ ساخرًا وقال:
"هو محاولة الفهم أصبحت حرام شرعًا ولا إيه ياخالد؟!"
"لا يا سيدي مش حرام, لكن كثر الجادلة يؤدي إلى الشك"
"الشك في إيه بالظبط؟!"
إستنشق خالد نفس عميق وقال:
"تعالى نتكلم بصراحة يا محفوظ"
"يا ريت"
"أنا وإنت زي بعض غلابة لا لينا ظهر ولا سند ولا عندنا فلوس نعيش بيها حتى التعليم ..إسمحلي يعني..إنت هتعمل إي بحتة دبلوم تجارة؟!"
مط محفوظ شفته السفلية, ودون أن يعلق في حين أردف خالد قائلًا:
"احنا لطشت فينا لحد ما شوهتنا, وفي الأخر لقيت طريق يحفظلنا كرامتنا وكمان يعني أهو بتلاقي قوت يومنا وبنكسب رضا ربنا"
أشار إليه محفوظ بالتوقف وقال:
"سيبك بقى من رضا ربنا والفيلم دا الحكاية سبوبة, بس مسألتش نفسك مين بيدفعلك وبيدفعلك ليه؟"
"ناس أهل خير بينفقوا في سبيل الله, إيه المشكلة"
"وهي الناس أهل الخير دول مش بيشوفوا غيرك إنت واللي زيك!! طيب ما البارودية كلها ناس مش لاقية اللضة؟!"
يبدو أن خالد قد يأس من الحديث مع محفوظ فقال بنبرة بدت غاضبة:
"إنت زي ما أنت يامحفوظ عنيد وواخد الدنيا بصدرك والعند بيولد الكفر, وعلشان إنت عزيز علي هقولك حاجة...قريب قوي هتكون البارودية كلها بتاعتنا وساعتها شرع ربنا هو اللي هيتكلم وهتندم على عندك دا..."
قالها واستدار منصرفًا تاركًا محفوظ خلفه وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة

وهو يغمغم قائلًا:
"يا ولاد الوسخة, هي البارودية هتلاقيها من مين ولا مين"
ثم نظر إلى السماء شاخصًا وهو يطلق زفرة حارة أخرج فيها كل ما في قلبه من حيرة وغضب, ولوحة متداخلة متداخلة المناظر والمشاهد ترتسم أمام ناظريه وذكريات قريبة تنتزع قلبه إنتزاعًا....

****

كل شيء ينذر بحادث جلل..
بمجرد أن تطأ دميك حي البارودية ابتداً من شارع الجبانة ومرورًا بمقام أبو الحمل وصولًا إلى تقاطع شارعي الرابطة وشارع عبود لن تجد في طريقك سوى رجال ونساء يهرولون من كل حدب وصوب ..
حتى الأطفال يتسارعون في خفة صبيانية وهم يهللون
"المناخلية هيقتلوا محفوظ ابن الفران"
ودون استيضاح للأمر أو الكثير من الحديث يهرع الجميع لمشاهدة ما يحدث..
وأنت في طريقك ربما تسمع بعض غمغمات من النسوة العجائز اللاتي عجزن عن اللحاق بالمارثون يقلن
"يلعن أبو المناخلية الظلمة ربنا ينتم منهم جايين عالواد الغلبان .."
أو تداعب أذنيك عبارة من قبيل
"ياعيني عليك يامحفوظ غلبان ومالكش حد.."
هذا المشهد العجيب للوهلة الأولى ستظن أن البارودية خالية من الإثارة حتى جاءت هذه اللحظة التي ينتظرها الجميع ..
لو إنك من أهل البارودية لكنت أنت نفسك الأن تضع ذيل جلبابك بين أسنانك وتنطل مهرولًا فما من كارثة إلا و إسم (المناخلية) مرادفًا دائما لها, لكن الاختلاف هذه المرة هو الشخص الأخر(محفوظ) فما من طفل أو شيخ أو رجل أو إمرأة إلا ويعرفه بل ويحبه..
وكالجميع ما إن سمعت اللإسم حتى كنت أول المرعين إلى هناك ف (محفوظ) هناك, وكل ما له علاة به يهمني.
يتساءل الجميع عن بداية الأحداث حتى يؤول الأمر إلى هذا المشهد الذي تراه الآن؟!
محفوظ مكبل الراعين يمسك به رجال أشداء من المناخلية, وقد اختفت ملامحه تقريبًا تحت تأثير الكدمات والتورمات على وجهه وأجزاء من جسده يمكن رؤيتها عبر ملابسه الممزقة لكن لا يمكن لعين أن تخطيء ابتسامة ساخرة على شفتيه المتورمتين وهو ينظر إلى أربعة من شباب المناخلية ربما أصغرهم حجمًا يماثل حجمي محفوظ وقد وجوههم أو ضمدت بعض الجراح في الرأس أو الأيدي, الأمر واضح تمامًا فالواقف هناك بين الرجال الأشداء مكبل الذراعين بجسده النحيل القصير هو من فعل كل هذا بالشبان الأربعة!

شهقة جماعية تعالت عندما أخبر أحدهم الجمع المتجمهر بهذه الحيقة الصادمة, محفوظ قد أهدر كرامة المناخلية ولابد من الانتقام حتمًا, لكن متى وأين ولماذا؟
من هناك بدأ الأمر.
كعادته جلس محفوظ على مصطبته الأثيرة يتنسم نسيم عصر مليء بالرطوبة الخانقة وأفكاره التي لا تنضب تضرب برأسه محملة بأحلام لن تتحقق وطموحات يأس من السعي خلفها وبيده كوب الشاي الأسود مع سيجارته الرخيصة, عادات قلما ينقطع عنها ربما يضيف لها جلوس بعض الصبية لمسامرته والإستماع إلى نكاته المضحكة أو حكاياته المثيرة, فيمكنك أن ترى تقلصات وجهه وهو يروي للصبية مغامرات سيف بن ذي يزن والجنية الجميلة عاقصة بنت ملك الجن الأبيض...
لكنه سرعان ما يمل صخب الصبية فيطردهم لينفرد بذاته.
احدًا لم يستطيع أن يقرأ يومًا ما يجول بخاطره, لكنه قلما تصادفه منفردًا على المصطبة غير شارد الذهن مع كوبه من الشاي وسيجارته وكأنهما محور الكون بالنسبة له أو صديقيه اللذين لا يفتأ يصرح لهما عن مكنون نفسه!
هذه المرة تغير كل شيء عندما انتزعه من شروده المعتاد صراخات انثوية لي‌ست ببعيدة تأتي من حارة (السلك) وهي حارة ضيقة صغيرة في منتصف شارع عبود يفصل بينها و بين منزله بنايتين فقط, وتلك الحارة تكاد تكون خالية من السكان فهي تحتوي على منزلين خاويين و الثالث لسيدةٍ عجوز لا تبرح مكانها على الأرجح, أما بقية المباني فهي مجرد ظهور لمنازل لاتطل على الحارة....
لم يتردد كثيرًا وهو يقفز من موضعه ملقيًا بكوب الشاي, والصرخات الأنثوية لا تنقطع و هناك هاله ما رأى!
لقد كان (صبري الشيردي) المناخلي يضع ذراعه على الجدار متكئأ على مرفقه وهو محاصر فتاة لم يتبينها محفوظ من فـوره لكنه من مسافة مناسبة تعرفها (فاطمة بنت الأسطى سعد الحشاش), صبري الشيردي يتحرش بها علنًا هل وصل الفجور إلى هذا الحد!!
"المناخلية أرازل الأرض و ربنا إبتلا بيهم البارودية " هكذا ودائمًا ما كانت تردد والدة محفوظ .
ورغم بغضه لهم وسخطه عليهم لكنه أبدًا لم يظن أنهم سيصلون إلى هذا الحد!!
لم يطل الأمر به وهو يدفع ب صبري بعيدًا عن الفتاة بكل ما أوتى من قوة والتي ما أن تحررت من الأخير حتى إنطلقت مسرعة لتختفي عن ناظريهما

دون أن تنطق بحرفٍ واحد.
إلا أن كل تفكير محفوظ كان منصبًا على صبري الذي تطاير الشرر من عينيه وهو يقول غاضبًا:
"إنت إتجننت يا بن الخياطة"
اردف صبري كلمته وهو يكيل لكمة صب فيها جام غضبه موجهة إلى فك محفوظ الذي تحرك في خفة متفاديًا اللكمة واسرع بردها إلى معدة صبري الذي إنحنى متألمًا وهو يصب مئات الشتائم التي لم تترك أي أنثى في العائلة أو عضو في الجسد إلا وذكرته..
" أنا إإبن الخياطة يا بن العايقة"
حاول صبري المواجهة مرة أخرى إلا أن لكمة أشد بأسًا أسقتطه أرضًا لا يقوى على الحراك وبصوتٍ يأن من الألم قال:
"والله لا تندم يا بن فتحية"
بصق عليه محفوظ وتجاوز السبة وهو يرى جسده لا يستطيع النهوض, وتركه عائدًا الى مصطبته ...
إنتهى الأمر عند هذا الحد أو هكذا ظن محفوظ حتى إنه كاد أن ينسى ما حدث تمامًا لكن صبري بطبيعة المناخليةَ الغادرة الغاشمة لم يلتئم جرح كرامته التي أحدثهَ محفوظ خاصةً مع تلك السخرية التي لاقاها من اقرابه عند ظهور الكدمات على وجه فضمر في نفسه الشر مهما كلف الأمر...
مع عدد من شباب المناخلية بمباركة بعض الكبار وفي الليلة السابقة لذالك الحادث الجليل الذي احدث كل هذه الفوضى,ارسل الجعار في طلب صبري الذي إختلج فليه جزعًا فماذا قد يكون حدث ليطلبه كبير المناخلية فورًا...
بقلب مرتجف وأوصال مهتزة وقف صبري أمام الجعار ذو القامه الفارهة والصدر العريض بشاربيه الكثيفه وبشرته السمراء ذات الحمرة من أثر الشمس فقال بصوته الخشن الغليظ:
"الواد بن الفران ضربك و مسح بكرامتك الأرض"
ارتبك صبري وهو يقول:
"اصل ..أصله خدني على خوانه يا معلم ..وأنا والله ما هسيبه"
أشاح الجعار بوجهه وهو يعلم جيدًا أن صبري يكذب ولكنه قال:
"علشان عيل خايب زيك همه على..."
قطع الجعار جملته وهو يشير إلى نصف صبري السفلي ثم أردف قائلًا:
"خليت روس المناخلية في الطين و تخلي عيل أمه زانية فيه يتجرأ على واحد من المناخلية؟ "
"وحياتك يامعلم ماهسيبه وكرامة المناخلية على رقبتي"

ضيق الحجار من عينيه وقد ضم حاجبيه وبصوته الخشن الذي جعل صبري يرتجف قال:
"الواد ده يجي متكتف ويبوس رجل كل مناخلي قدام كل البارودية علشان يكون عبرة ... فاهم وإلا حسابك هيكون عصير.."
ارتجف صبري وقال:
"أوامرك يامعلم "
أشار له الجعار ليذهب دون أن يعرف أن صبري كان عاقد العزم بالفعل للإنتقام لكن الجعار حقيقةً لم يكن يثق في صبري فهو في رأيه (عيل تافه) لهذا بصوته الغريب صرخ قائلًا:
"عويس .. ولا يا عويس.. "
اتى شاب ضخم الجثة يمسك بيمينه هراوة من الخيزران السميك فقال الجعار:
" أقطر الواد صبري وشوفه إيه مع بن الفران لو لقيته هيجلي أتدخل بسرعه لازم ابن القحبة دا يجي راكع قدام البارودية كلها فاهم؟!"
هزرأسه وقال:
"هيجيلك في شوال يا كبير.."
قالها وإنصرف مسرعًا ليبدأ مشهدًا جديدًا لم يكن في حسبان محفوظ...
عمل محفوظ كأي عمل لا يحبه ولا يكره لكنه يضمن له علبة السجائر ةقد يشكل فائضًا ليساعد مع معاش والده اتي تتفاضاه الأم بضع جنيهات لاتسد رمقها منفرده ما بالك بوجود محفوظ نفسه؟
لذالك عمل في مهنة مصور الفيديو في الأفراح قد تبدو المهنه جيدة للبعض لكنه ابدًا لم يكن راضيًا عنها لكنها المتاحة وتناسب عاداتة من الإستيقاظ متأخرًا والسهر ليلًا وربما بعض الإثارة أحيانًا وفي كل الحالات مهنة ككل مهنة يعود منها اخر اليل ببضع جنيهات منهكًا خائر القوى ليجد الشوارع شبه خاليه وعلى مقبرة من المقابر فوجئ محفوظ بكمين صبري ومن معه كان اربعة شباب من بينهم صبري فيها هجمه على محفوظ بقوة لكنه ابدًا لم يكن سهل المراس أو فريسة سهلة ولأنهم من المناخلية في دمهم الغدر لم يستطيعوا رغم كثرتهم مواجهته حتى فعل بهم الأفاعيل بيديه الفارغتين أو حجر إلتقطه من الأرض ليفروا مزعورين..
كاد الزهو يملأه والسخرية تطل من وجهه لولا كمينه الاخر لم يكن حتى صبري ورفاقه على علم به حيث هوت هراوة عويس على رأسه من الخلف فتظلم الدنيا ويسقط أرضًا فاقدًا للوعي...
فيقضي ليلته مكبلًا في حظيرة الماشيه بمنزل الجعار, ورجاله لا يدخرون

جهدًا في لكمه وركله وسبه وهو مكبل بلا حول منه ولا قوة, وفي الصباح أخرج المناخلية فريستهم للعامة ليصنعون مشهدهم الذي تجمهر الجميع لمشاهدته ومحفوظ بحالته المزرية وفجأة ساد الصمت على الجميع عندما أطل الجعار بجسده الضخم وشاربيه, يرتدي عباءة عربية أسفلها جلباب مطرز عند العنق وعمامة لفها على الرأس مباشرةً دون قلنسوة ,كما عادة المناخلية, في يده اليسرى عصاه الأبانوس فكان بصورة مدهشة, وهو يطل من شرفة منزله الكبير الأنيق.
شخصت الأبصار الى الجعار الذي أطل بجبروته وقال بصوته الخشن الجهورى:
"اللي إإنتم شايفينوا دا حاجة بسيطة لعيل إتجرأ بس على أسياده المناخلية فأدبناه وعلشان أنا قلبي طيب هسيبو يعيش..لكن على شرط واحد"
ثم ينظر إلى محفوظ قائلًا:
"وطي يا ولد وبوس رجل سيدك صبري"
ودون تردد دفعه رجلين ممن يحيطون به ليسقط على ركبتيه عند قدمي صبري الذي بصق عليه وقد بدت عليه الشماته, ثم رفع قدمه إلى فم محفوظ الذي أشاح بوجهه بعيدًا رافضًا تقبيل قدمي صبري قبل أن يصرخ متألمًا عندما ركله أحد المناخلية في معدته التي شعر بها تكاد تقفز من فاه فتقلصت عضلاته حتى إقترب وجهه من حذاء صبري الذي دسه في وجهه كأنه يقبله قبل أن يدفعه بعنف!!
هنا إنطلق صوت من بين الحشود جعل الجميع ينظرون إل مصدره...
ومن بين الجماهير شقت طريقها برابطة رأس أظهرت شعرها المصبوغ باللون النحاسي الصارخ الغير متناسق مع بشرتها السمراء الكالحة بفعل الشمس وقد غطتها بكم لا بأس به من مساحيق التجميل الرخيصة والتي زادتها سمرة على سمرتها لكن للحق إن تلك العباءة الملفوفة على خصرها قد أظهرت جسدًا ممشوقًا لا بأس به يحوى كل ما يجذب انتباه الرجال من منحنيات و تعاريج توحي إن تلك العباءة السوداء تخفي كنزًا ثمينًا يتمناه أي ذكر!!
من بين الصفوف وبخشونة أزاحت (رضا مراجيح) الرجال من طريقها حتى توسطت تلك الدائرة المحيطة بمحفوظ و صبري, والأول منبطح على ركبتيه وهي تصرخ:
"هو في ايه يا جدعان هو افترا وخلاص على الجدع ؟!"
ثم ألتفتت إلى الجماهير وإستدركت قائله:
"وإنتم يا رجالة البارودية كلكم واقفين تتفرجوا ولا شنباتكم كلها بقت على

نسوان ؟!"
قال الجعار بصوته المميز وبعصبية:
"يا بنت يا رضا ازاي تتجرأي وتدخلي في مواضيع الرجاله مبقاش إلا الشراميط كمان"
رفعت رأسها إلى الشرفة ونظرت إليه متحدية وقالت:
"يا معلم كل واحد عنده الي قافل عليه وكل قوي فيه الأقوى منه و الظالم مصيرة يتظلم حتى الشرموطةعندها كثير"
إحمر وجه الجعار بطريقه غريبة وصمت للحظات وكأنه يستعيد رباطة جأشه قبل أن يتجاهل رضا ويوجه كلامه للجميع قائلًا:
"أي حد يتجرأ على أي مناخيلي من أكبرهم لأصغرهم أديكم شوفتم عينة صغيرة وعلشان محفوظ واد غلبان كفاية عليه كدة النهاردة وأظن إنه عرف غلطته..و يلا كل واحد يشوف حاله مش عاوزين زحمة هنا"
بمجرد أن إنتهى كلامه إنطلق عدد من المناخلية بعصيهم يفرقون المتجمهرين والذين سرعان مبتدعين في نفس اللحظة ألقت فيها رضا بنفسها أرضًا تحل وثاق محفوظ لا مبالية برجال المناخلية, وما إن حلت أخر وثاق عن محفو حتى شعرت بيد قوية تعتصر عضدها وتجذبها بعيدًا نظرت خلفها لتصدم عيناها بعين الجعار الثاقبتين واللتين كانتا كعيني ثعبان أرقط, مخيفتين بحق, وهو يهمس إليها بصوت كالفحيح:
"مش هعديلك اللي حصل دا يا بنت الكلب وخليكي فاكرة كدة كويس"
رغم ألم ذراعيها من ضغط الجعار عليه إلا أنها ابتسمت ساخرة وقالت بميوعة:
"كل حاجة بتعدي وكله يهون لما الشوق يحدف ناحية رضا مراجيح يامعلم.."
رغم ثورته التي طغت على تقاسيم وجهه إلا أنه أفلتها وشاردًا أخذ يتابعها وخلفه رجاله وهي تساند محفوظ لينهض متكيء عليها وبخطوات بطيئة مضطربة يغادران الشارع تمامًا حتى اختفيا فغمغم الجعار قائلًا:
"وحياة أمك يارضا لهوريك.."
اقترب أحد رجاله منه محاولًا أن يسمع ما قاله الجعار وقال:
"بتقول حاجة يامعلم؟!"
بعصبية صرخ الجعار في وجهه:
"وأنت مال أمك غور انت والبهايم دول من وشي"
انصرف الجميع ليبقى الجعار وحيدًا في منتصف الشارع شاردًا إلى أقصى حد..

****

ألقى بجسده العاري على الفراش القذر وهو يلهث للحظات من فرط النشوة وجسده يلمع من أثار العر الذي غطا أنحاه..
في حين أسبلت رضا جفنيها ود ضمت ذراعيها على نهديها العاريين كبقية جسدها البرونزي الذي لمع بدوره من أثار العرق كأنها خارجة للتو من معركة وطيس استسلمت هي لها منذ البداية, وقد لاحت على شفاهها شبح ابتسامة رضا أخفت معالمها تقلصات وجهها بعدما نجح فارسها في دك حصونها وثبر أغوار جسدها المتمرد..
رغم وجهها الذي يكاد يفتقر إلى لمسة الجمال الأنثوية إلا من نظرة عينيها الصارخة بالشبق, وكذلك جسدها البض الذي لخص كل معاني الأنوثة, والذي جعل محفوظ يتراجع بظهره متكئًا على مرفقه واضعًا كفه أسفل ذقنه وهو يتفحص ذلك الجسد المتمدد أمامه على الفراش كأنه من عمل نحات بارع اهتم بأدق التفاصيل خاصة مع ضم مرفقيها على صدرها ولف قدميها واحدة على الأخرى فبدت كتمثال إغريقي حقيقي.
لقد نجحت رضا مراجيح في تخفيف ألام جسده التي تلاشت, وكذلك تناسى نزيف كرامته المهدورة, عندما اصطحبته من بين رجال المناخلية وزعيمهم لم تجد أمامها سوى بيتها لتأويه مضمدة جراح جسده فيجد نفسه عاريًا أمامها تنظر إلى الكدمات المتفرقة ليشعر بشفتيها تلثم صدره العاري وراحة يدها تمسح ساقه صعودًا متزامنة مع شفتيها اللتين أخذاتا تمسح صدره صعودًا إلى عنقه ومع حركاتها البارعة أسبل جفنيه مستسلمًا حتى شعر بشفتيها تلتهمان شفتيه وأنفاسها الحارة تلفح وجهه ويدها لازالت تعبث فلم يتمالك نفسه ليدفعا فتسقط بدورها على الفراش وما هي لحظات حتى كان كلاهما عاريين تمامًا ينهلان من بحار الشو والمتعة.
ظل يتفحص جسدها غير مصدق أن هذا الجسد الرائع كان تحت وطأته, وهو الذي لم يعرف عن النساء سوى بضع مشاهد في أفلام (الترسو) التي تعرضها سينما عبدالحميد للمراهين فيصفقون ويطلقون صافراتهم حماسة مع ظهور ممثلة أروبية بملابس البحر أو عاشقين يتبادلان القبلات, فإذا ما اختلى بنفسه حتى استعاد كل هذه المشاهد متخيلًا نفسه بديلا لذلك الممثل أو ذاك حتى يتهاوى ساقطًا في بحر لذة وهمية!
أما الأن فلقد تجرع كأس المتعة بين أحضان جسد حقيقي دافيء, وشتان بين المتعتين فلا ألذ ولا أروع من جسد حقيقي تعتصره بجسدك!
كانت لازالت رضا على حالتها وهو يقول:

"مبسوطة؟!"
سؤال عادة ما يقلل من فحولة الرجل حيث يبدوا شاكًا في قدراته على إسعاد المرأة, لكنه عديم الخبرة ود وجده ضروري خاصة مع واحدة مثل رضا..
أصدرت أنين محبب وهو تفتح عينيها وتنقلب في الفراش على شقها الأيسر ولازالت تحبس هذين النهدين النافرين كأنما تخاف أن يفرا هاربين فتطل إليه بعينين لامعتين ونظرة لا يمكن وصفها سوى بأنه كاد أن يقفز عليها ليعيد الكرة من جديد, لكنه تمالك نفسه, فهو لازال يخشاها فهي لم تكن سهلة في الفراش لقد أنهكتها حقًا
قالت بصوت متغنج جعل عضلاته تشتد متحفزة لصراع كبير:
" هتصدقني لو قلتلك إن دي أول مرة أبقى مبسوطة وأنا بيتعمل فيا كدة؟"
قال متعجبًا:
"رغم كل الرجالة اللي ناموا معاكي دول؟"
تلاشت تعابير الغنج تدريجيًا لتحل محلها تعابير التأثر وهي تول:
"شغلتي إني أحسس الراجل اللي معايا إنه أسد على السرير حتى لو كنت نايمة مع أختي, لازم يحس إني هطير من السعادة وإنه طرزان اللي أي مرة تتمناه, لكن المشكلة إن عمري ما عملتها بمزاجي أو مع راجل أنا اللي أختاره, مع راجل يشبع جوعي! لكن كل اللي بيجي هنا عاوز يرمي حمولته ويتوكل بعد ما يدفع وهو خارج بيتلفت زي الحرامية خايف حد يلمحه خارج من عندي"
"ياه أنا افتكرت إنك بتشتغلي الشغلانة دي علشان بتحبي الحكاية يعني!.. فلوس ومتعة"
انطلقت ضحكتها المعربدة وقالت:
"ومين قالك إإني مش بحب الحكاية دي؟!"
رفع حاجبيه دهشة وحيرة وقال:
"إنت لسة بتقولي حالًا!!"
"مش معنى كلامي إني معملتهاش مع راجل عاوزاه أو إن أنا اللي عندي رغبة فيه إني مش بحب شغلي..أه شهوة جسمي ممكن, لأن علشان أحس بالمتعة لازم حد يخلي قلبي قبل جسمي يستسلمله, الست مننا مش جسم حلو وماعون صب فيه اللي عندك ولا هي مكنة جاهزة أول لما تطلبها تترمي على ظهرها على السريروتفتح رجليها! لا... الست بني انسانة جسمها وقلبها ما ينفصلوش عن بعض أبدًا, ولما تحب حد ممكن تسلمه عمرها مش جسمها بس.."

"كلامك عجيب قوي يارضا ومش مفهوم, لكن هسألك السؤال بطريقة ثانية, مش بتزعلي من كلام الناس واللي بيقولوه عليكي؟!"
انطلقت ضحكتها العالية يتردد صداها في الغرفة وقالت ساخرة:
"بيقولوا عليا مومس يعني!..طيب ما أنا مومس بنام مع الرجالة وأقبض منهم إيه المشكلة؟!...المشكلة إني عارفة أنا إيه وبشتغل إيه وعايشة على الأساس دا وعمري ما ضحكت على حد وأنكرت حقيقتي دي, لكن الناس اللي بتتكلم عليهم دول عاهرين وعاهرات من جواهم لكن بيخبوا المومس اللي جواهم وعمرهم ما بيعترفوا بيها عايشين بمليون وش ووش, فصعب إنك تعرف فيهم الكويس من جواه وابن اللبوة, صعب تميز بين الطاهر والنجس هي دي الحكاية كلها أنا زي ما أنا مومس قدام الناس ومومس قدام مرايتي ماليش وش ثاني"
تنهد بعمق قائلًا:
"معاك حق والله يارضا إنتِ أكثر واحدة واضحة فينا, المشكلة في اللي عايش بوش ملاك وهو في الحقيقة شيطان نجس"
"على فكرة إنت زي يامحفوظ علشان كدة حسيت إنك أقرب حد في البارودية ليت"
رفع حاجبيه متعجبًا وقال متسائلًا:
"زيك؟...عاه....."
قطع جملته وتنحنح حرجًا, فانطلقت ضحكة عابثة ثم طبعت قبلة على خده وقالت:
"مش قصدي دي يامحفوظ, أقصد انك واضح وصريح والناس كلها عارفة كدة وعلشان كدة بيحبوك أنا النجسين فيخافوا م اللي زيك"
"بيخافوا مني؟!"
"النجس مش بيكره في حياته زي الطهارة لأنها بتكشفه قدام نفسه, وتعري وشوشهم العيرة علشان كدة المناخلية عمرهم ما هيقبلوك وكمان الجماعة أمات دقون, كل دول وشوشهم الحقيقية أوسخ من نعل جزمتك"
قال وقد تملكه العجب من طريقتها في الحديث:
"بس أنا طول عمري في حالي لا ليا دعوة بحد ولا إتدخلت في حياة حد ليه بقى يحطوني ف دماغهم؟!"
"العيال الصغيرة اللي بيحبوك يامحفوظ لأنك بريء زيهم, وهما فاهمين كدة كويس وشايفين تعلق العيال بيك, والعين ماتحبش اللي أحسن منها"
تملكته الحيرة وهو لا يصدق أن من تحادثه الأن هي ذاتها عاهرة الحي رضا مراجيح وهي لازالت عارية كأي عاهرة فرغت توًا من عملها على السرير لكن

ما يخرج من بين شفتيها الأن لا يمكنه الخروج سوى من فيلسوف حكيم لا شفاه لم تعرف سوى القبلات الحارة مع الرجال, أو امتصاص لفافة تبغ أثقلت الهموم أنفاسها, شفاه يتجنب حديثها الجميع لما تحمله من كلمات بذيئة يتظاهر الجميع أنهم يقشعرون من نطقها!
وكأنها قرأت في عينيه ما يجول بخاطره ابتسمت وهي تلف ذراعها حول عنه وتقول:
"عارفة إنك مستغرب كلامي, وإن إزاي واحدة زيي ماتعرفش غير النوم مع الرجالة تقول الكلام دا؟!"
هز رأسه موافقًا وزفر بشدة وال:
"بصراحة أيوة, كأني بسمع حد تاني غير رضا اللي اعدة ملط دامي دلوقتي واللي طول عمري أعرفها صابغة شعرها بالأكسجين واللبانة ما بتسبش بقها, والجسم اللي بيتهز طول ما هي ماشية يخلي الرجالة عينيها تنط من مكانها, رغم إن عبايتها قديمة ومبقعة!..أنا كأني بسمع واحدة من اللي كلامهم مالي الكتب واحدة طول عمرها عايشة تتأمل وتتعبد؟"
هزت رضا رأسها في أسى وعدلت من جلستها لتضم ركبتيها إلى صدرها فتسند عليهما ذقنها وبصوت خافت كأنها تحادث نفسها تقول:
"رضا مراجيح مش طول عمرها مراجيح يامحفوظ, الصورة اللي قدامك دي متعدلة الزمن والظروف طبعوا عليها كثير قوي لحد ما اتحولت لمراجيح اللي أنت بتتكلم عنها, عارفة إن كلامي متكرر وكل مجرم هيقولك اللي خلاني مجرم الظروف, لكنها للأسف الحقيقة والإنسان جوانا بيكون ضعيف قوي علشان كدة بنقع وأنا كنت أضعف من ريشة ف مهب الريح ووقعت بس وقعتي كانت شديدة حبتين خلتني رضا مراجيح"
تبادلا نظرات ذات معنى للحظات قبل أن تنتفض هي من وضعها فترتكز بذقنها على كتفه وهي تقول بمرح مستدرجة:
"بس بصراحة حاجة جميلة انك تتفرج على البارودية كلها هنا على السرير عريانين, بكون ساعتها أسعد حد في الدنيا لما أشوف الرجالة اللي بتتهز الأرض تحت رجليهم وشنابتهم تقف عليها الصقور, ملط زي ما ولدتهم أمهاتهم, ومش قصدي ملط من غير هدوم لا! قصدي على حقايقهم من غير أي تزييف....يامحفوظ في بيت المومس الكل عريانين, الكل على حقيقته, يمكن علشان كدة بحب شغلي"
مالت بصدرها العاري حتى احتك لحميهما فشعر برعشة تسري في جسده وهي تهمس إلى أذنه فتلفح أنفاسها خده قائلة:
"أقولك سر؟"

"قولي؟"
" أحلى وقت ببقى مبسوطة فيه لما بركبهم.."
"تركبيهم؟!"
"أه أركبهم زي الحمير ببقى أنا اللي متحكمة فيه"
قالتها وهي تصعد على حجره وجهها يقابل وجهه فينزلق في فوهة ساخنة عميقة تبدو بلا نهاية فيقول متأوهًا:
"حقيقي عند المومس الكل عريان..."
****

عاد(الجعار)من رحلته الليلية المعتادة والتي تشكل لغزًا دائمًا لكل من يعلم بذلك الموضوع, في الشيء الذي يدفع(الجعار)إلى الدخول كل عدة أيام في وقت متأخر من الليلة إلى المقابر ليغيب بضع ساعات قبل أن يعود مع الفجر إلى منزله الكبير الفاخر.
على بعد بضع بنايات من منزله وقد كان منهكًا يكاد يدفع قدميه من الأرض, لمح طيف شخص يتسلل خارجًا من منزله تبنيه على الفور أنه صبيه عويس يخرج من باب المنزل بحذر كأنه لص يخرج من بعد عملية سطو لكن العجيب أن الجعار هو من أخفى نفسه خلف عربة كارو أمام أمام أحد المنازل ولم يخرج حتى أطمأنّ أن عويس إبتعد تمامًا...
دلف الجعار إلى منزله وهو يتحسس طريقه حتى وصل إلى غرفة نومه فخلع نعليه وألقى بها بعشوائية فإنتبه إلى زوجته التي تحركت في في فراشها وقد كانت ترقد على وجهها عارية الجسد وشعرها يتناثر على الوسادة حول رأسها فقالت بصوت متهدج:
"إنت وصلت يا معلم؟"
قال:
"اه عندك إعتراض؟!"
مصمصت شفتيها وقالت:
"جيت ولا ما جتش هتفرق ف إيه يعني!!"
قالت عبارتها وهي تنهض بصعوبة وهي تجذب ملاءة السرير لتستر جسدها العاري تمامًا،كانت مديحة شابة في الثلاثين من عمرها تقريبًا ذات عينين سوداتين مثيرتين وأهداب طويلة, بشرتها خمريه تميل إلى البياض وشعر طويل كستنائي اللون ويبدو أن جسدها لايقل جمالًا عن ملامحها الأنثوية...
قال وهو يتابع خلع ملابسه دون أن ينظر إليها:
"أنا شوفت الواد عويس وهو ماشي"
تنهدت بعمق وقالت:
"يالهوي عالواد.. دا كان هيموتني"
نظر إليها في غيظ وقال:
"ماتهدي على نفسك ياولية كدا مالك؟!"
"مالي على الله يا خويا نصيبي وقسمتي إن سبعي وسيد المعلمين سايبني محرومة"
"ولازمته إيه الكلام دا ما أنا سايبك أهو إنبسطي براحتك"

"أنبسط إزاي وكل صبيانك بيبصولي على إني لبوة بخون المعلم الكبير اللي الكل بيعمل له ألف حساب وميعرفوش إنه عارف كل حاجة وإن كل حاجة برضاه وإن المعلم الكبير هو في الحقيقة أكبر قرني وعلى مين على مراته"
نظر إليها بقرف ولم يعلق بل أبدل ملابسه وإرتدى جلباب قيم أظهر قامته الفارهة ومنكبيه العريضين أمام مرآة ضخمة برم شاربيه وهو خارجًا من الحجرة محاولًا أن يتغلب على إرهاقه الشديدة ويبدو في كامل هيلمانه لكنها إستوقفته قائلة:
"رايح على فين يا سبع..إنت لسة فيك حيل ثاني؟!"
دون أن يجيب إلتفت إليها وقد سقطت الملاءة من عند صدرها ثم بصق أرضًا وتركها وخرج إلى حجرة واسعة من تلك التي يطلقون عليها مندرة تتسع لعشرين رجلًا تقريبًا, عبارة عن غرفة مستطيلة يلفها عدد كبير من الأرائك الخشبية على طراز الأرابيسك القيمة, والتي تدل على ثراء لا بأس به تتوسطها ثلاث طاولات من نفس الطراز على كلًا منها رخامة وأصيص ورد صناعي مغطاه بمفارش تريكو صغيرة لا يربط بين ألوانها أي رابط..
وفي صدر الحجرة كرسي عملاق ذو مسندين للذراعين يزينهما وجهي أسدين منحوتين من الخشب, ليبدو وكأنه كرسي عرش لأحد الملوك وهذا المقعد ما كان يجلس عليه الجعار, وأمامه نرجيلة طويلة العنق يسحب أنفاس المعسل منها بنهم ليشكل دخانها سحابة كثيفة تجعل من المستحيل تبين ملامحه أو تفاصيل (المندرة).
مرت قرابة النصف ساعة قبل أن يسمع الجعار طرقات خافتة على الباب فينهض مسرعًا ليفتحه فيظهر خلفه خالد أو الشيخ خالد أبوذراع كما يطلق عليه الناس اعتبارًا للحيته الضخمة وجلبابه الأبيض وعمامته!!
"السلام عليكم يامعلم"
"وعليكم السلام..اتأخرت ليه كدة؟!"
قالها الجعار بعصبية وهو يفسح الطريق لخالد مارًا إلى المندرة والتي يبدو أنه يعرف طريقها مسبقًا وهو يرد على الجعار قائلًا:
"على ما صليت الفجر وجلست مع بعض الإخوة نناقش بعض أمور الدين"
عاد الجعار إلى كرسيه ونرجيلته وعلى مقربة منه جلس خالد على إحدى الأرائك, وقد أظهر بعض الضيق من تدخين الأول إلا أن الجعار تجاهله وأخذ ينفث دخانه بكثافة وهو يقول:
"طبعًا مسترب أنا طلبتك ليه؟"
أشاح خالد براحتي يده وقال:
"لعله خير إن شاء الله!!"

مال الجعار بجزعه إلى الأمام حتى اقترب من وجه خالد ونفث دخان المعسل وقال:
"إنت عارف إني راجل بيخاف من ربنا؟!"
نظر إليه خالد نظرة ذات معنى تحمل بين طياتها سخرية, إلا إنه لم يعلق وآثر الاستماع في حين أكمل الجعار قائلًا:
"إيه رأيك في النجاسة اللي جابتلنا ولكل أهالي البارودية النحس والفقر؟!"
رفع خالد حاجبيه دهشةً وقال:
"تقصد إيه يامعلم؟ ياريت توضح كلامك"
تراجع الجعار في جلسته وقال:
"في حد في البارودية والعياذ بالله بيعمل النجاسة لا مؤاخذة يعني, حد وسخ وموسخ المكان كله وأنا عارف ان دي حاجة ماترضاش عنها إنت والمشايخ ولا إيه؟"
ارتسم الحزم على وجه خالد وقال:
"إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا ةالآخرة.."
بدا البِشر على وجه الجعار وهو يهتف كأنه وجد ضالته قائلًا:
"أهو قال في الدنيا يعني لازم يتعاقب في الدنيا صح؟"
"ما تيجي دوغري يامعلم!!"
"البت رضا عارفها ..رضا مراجيح!"
استرخى خالد في مجلسه وارتسمت على ابتسامة وهو يقول:
"طيب والمطلوب"
عاد الجعار بجزعه إلى الأمام ورفع راحتيه إلى أعلى قائلًا بصوت هادىء:
"شرع ربنا...شوف إنت بقى شرع ربنا بيقول إيه في الزاني والزانية؟!"
اقترب منه خالد وهو ينظر إلى عينيه مباشرة وقال:
"بص يامعلم أنا عارف اللي بتفكر فيه, وكل الناس شافت اللي البنت رضا عملته ساعة حكاية الواد محفوظ, ومش هسألك إيه بينك وبينها لكن لو عملناها هنستفيد إيه؟"
ابتسم الجعار وسحب نفس عميق من المعسل ثم نفخ دخانه في وجه خالد وقال:
"كدة إنت سهلت علي الحكاية, قول طلباتك.."
شد خالد قامته قائلًا:
"نتحرك براحتنا في البارودية للدعوة, من غير ماحد من المناخلية يتعرضلنا.."

"بسيطة"
تنهد خالد بارتياح وقال:
"يبقى شرع ربنا يطبق والزانية تتعاقب باللي حدده ربنا"
قالها فانفجر كلاهما في نوبة من الضحك.....
****

يشعر بداخله إن كل العيون تنظر إليه, بل إن كل الأبصار تخترق كل خلية من خلاياه, ورغم أنا معظمها نظرات اشفاق إلا أنه يشعر بها سهام تخترق جسده فتدميه.
لم يعد ذلك الطاووس المعتد بذاته وهو يسير فاردًا جناحيه واثق الخطى يمشي ملكًا تغمره نظرات الاعجاب والمحبة!
هو الأن تتعثر خطواته تعيقها عيون المشفقين والشامتين حتى أصدقائه من الصبية والأطفال قد تخلو عنه أو بمعنى أدق تخلى هو عنهم فلم يعد يعقد سامره معهم على مصطبته وهم كذلك لم يعودوا يسألةا عنه فصارت المصطبة مهجورة حتى من كوب الشاي الثقيل والسيجارة, قد صارا بلا طعم أو معنى..
ابتسامة ساخرة ترتسم على جانبي فمه مما آل إليه حاله – إنه يسخر حتى من نفسه حتى من ابتسامته الساخرة ذاتها-!
هو كان دائمًا عن هذه النقطة(اللاشيء) مجرد لا شيء هو لم يتخطى يومًا كونه محفوظ ابن الفران والخياطة؛ ذلك الشاب الذي لم يبرح يحيا داخل أوهامه وأحلامه حتى استحالت إلى كابوس حي من روح وجسد..
هو دائمًا كان ظلا على الجدار بلا ملامح بلا وجود حقيقي, لكنه ظن لبعض الوقت إنه إنسان!
تجول ببصره في وجوه الناس, كانوا ظلال مجرد ظلال تتخفى خوفًا من بطش الجعار, وبطش الزمان, فكلاهما يبطش وكلاهما يسحق من يقع بين براثنه!!
للحظات يتذكر رضا مراجيح العاهرة الفيلسوفة يمصمص شفتيه وهو يغمغم:
"انت الوحيدة اللي فهمتيها صح!"
هي تعرف حقيقتها, تحيا الحقيقة مجردة من الأوهام فلا تعرف طريقها إليها, كذلك ترى الجميع على حقيقتهم!
الحقيقة هي السلاح الذي جعل الجعار يقف مكتوف الأيدي أمام رضا والذي سيجعل أي رجل آخر بالبارودية سيصمت للأبد لو تكلمت رضا!
بغير هدىً تقوده خطاويه إلى أي مكان, يسير تائهًا في ملكوته لا يحادث أحد ولا يحدثه أحد فلا أحد يعلم إلى أين يذهب ولا متى يعود, وكيف ذلك وهو نفسه لا يعرف طريقه, وأمه شبه الضريرة قد كلت من نصحه والحديث معه فلا هو ابنها الذي تمنته ولا هو محفوظ الذي عرفته!
فلم تعد تراه في البيت إلا نذرًا!

أما هو فكان سائحًا ما بين الأحراش خلف المعسكر القديم وأحيانًا تقوده خطاه إلى المقابر فيشقها ذهابًا وإيابًا من شارع الجبانة الشرقي ثم يعود من طريق (كوبانية الجاز)[1] وأحيانًا أخرى يستريح أسفل شجرة كافور عملاقة تظلل مقام أبو الحمل- آه أبو الحمل أي أحمال حملها حتى يصنعون له مقام يؤمه الزائرون!!-
هوايتي الصبيانية هي مراقبة محفوظ.
أحيانًا أعرفه أنني أتبعه فنتبادل بضع كلمات وأحيانًا أخرى لم يكن ينتبه لوجودي أصلًا لكنني أتبعه أحب أن أتتبعه ..لماذا؟ لا أدري!
ربما لأنه اصطفاني بالحديث عن نفسه أكثر من مرة, أو لأنني وجدت فيه حالة متفردة بين كل من يحيطون بي!
أسئلة بلا حصر يمكنك أن تطرحها لكن لصبي مثلي أن يعطيك أجوبة ترضيك وترضي فضولك!
كل ما يمكنني الحديث عنه وأنا أراقبه كظله وعند مروره من مكان ما فأصرخ بصبيانية داخل نفسي قائلًا:
"احنا عدينا مرة من هنا أو لعبنا مرة هنا"
في هذا المكان حملني محفوظ على كتفه لأقطف ثمار التوت من على أغصان (التوتة) العجوز المطلة على رصيف محطة القطار القديمة المتهالكة وببراءة صبيانية رغم فارق السن بيننا إلا أن الطفل بداخله كان أقوى من مظهر الشاب الذي تراه عيناك!!
وببراءة صبيانية أخذنا نتخاطف التوت من بعضنا البعض ونلوكه بشراهة كأننا في سباق مارثوني لمن يستطيع إنهاءه أسرع من الأخر, كل هذا ولم نغسله فقط نكتفي بمسحه في ملابسنا وهذا يكفي لنتلذذ بطعمه, ويبدو أن البكتريا والأمراض لم تعبأ بنا كما أننا لا نعبأ بها بل لم نكن نعبأ بأي شيء على الإطلاق!
لقد علمني محفوظ كيف أن المتعة في أبسط الأشياء وأقلها فعدة ثمرات من التوت هي الدنيا وما فيها, وخلع ملابسه ونزوله إلى(البحر)للسباحة؛ وبالطبع كانت مهمتي حفظ الملابس والحقيقة إنه لبس البحر بالمعنى الحرفي بل هو مجرد ترعة تربط مدينتنا بالنيل وكانت السباحة فيها في هذا الصيف الحارق هي الدنيا وما فيها!!
محفوظ تعلم أن يعيش, هو يملك الحياة أوكذالك كان يحاول...
فربما يذهب السنيما الشعبية والجلوس في مقاعد الترسو لمشاهدة فيلم هندي متكلف أو آخر أمريكي درجة عاشرة ربما لم يشاهده مخرجه نفسه,

---

[1] شركة الجاز

لكنه لم يكن يعبأ لكل هذا فهو ينتظر فقط تلك المشاهد يدسها من يديرون السنيما تلك المشاهد الساخنة التي عادة لم تكن من الفيلم أصلًا, وصرخات المراهقين والشباب عند انتهاء المشهد (شغل يابو قرعة) وأبدً لم يعرف أحدهم من هو ذالك الأقرع!

وبعد أن يشحن ذاكرته بتفاصيل المشاهد يعود إلى غرفته وأريكته فتعود تلك المشاهد إلى ذهنه فيعيد صياغتها وحيكتها و..... من ثم ينفجر بركانه فيسقط خائر القوى متلذذًا بمتعته الفردية!!

وها وهو الأن يسقط خائر القوى مرة أخرى لكن هذه المرة لم تكن جراء متعة جنسية زائفة أو مشهد عابر, لكنه يسقط بعد أن سحقه الدهرفلم يعد هو محفوظ الذي كنت أعرفه أو الذي كان هو نفسه يعرفه حتى إنه لم يعد يتذكر أي شيء عن (نجلاء) وهي حلم حياته التي طالما انتظر بالساعات حتى تطل فيراها ولو للحظة عابرة, ورغم إنه لم يحادثها ولو مرة واحدة في حياته إلا إنها حبه الأوحد وحلمه المستحيل, الصورة التي لم تفارق يومًا خياله هي الأن نسيًا منسيًا!

فكيف لذلك الممتهن أن يفكر الأن في- ست البنات - أو حتى يجرؤ أن ينظر إليها؟!

يكفيه ما يناله من رضا مراجيح فهي الأن ملاذه الأخير هناك على فراشها تتناثر أشلاء ذاته فلا يمكن التعرف عليها وتنصهر في حرارة اللقاء كل شجونه لهذا صارت رضا مراجيح هي محطته الأخيرة كل بضع ليالي بعد أن تنفض جولته العشوائية كل يوم حتى تلك الليلة...

****

مسخ مجرد مسخ بشري هكذا ينظر إلى نفسه في المرآة الحمام بعد أن إغتسل محاولًا إزالة تلك الرائحة عن جسده وملابسه لكنها تملأ أنفه, ورغم قرفه من نفسه إلا أن ابتسامة لاحت على شفتيه وهو يتذكرها كانت ترقد أمامه بعد أن جردها من كل شيء يتفحص جسدها البض وجفنيها مسبلين فإنحنى يقبل شفتيها ثم استحالت قبلاته إإلى جنون شهواني فخلع عباءته وتجرد من ثيابه دفعة واحدة ملقيًا بها على الأرض ثم إعتلاها وهو لازال يلتهم شفتيها و..
فتحت عينيها فجأة فظهرتا حمراوتين ككأسين من الدماء, ترمقه بنظرات جعلت الدماء تتجمد في عروقه وهو يحاول أن يبتعد عنها لكن يديها ككلابين أمسكتا به فتشلا حركته تمامًا وشفتيها تنفرجان ليتسلل من بينهما لسانها المشقوق كلسان الأفعى وذلك اللسان يمتد خارجًا فيطول ويطول فيدخل من شفتيه قم ينطلق إلى بلعومه وهو يشعر به يتسلل إلى أحشاءه فيحاول الصراخ والاستغاثة لكن دون جدوى فلا صوت يخرج ولا هو يستطيع الفكاك واللسان يشعر به يمزق أحشاءه تمزيقًا وروحه تنزلق منه فيغيب ويغيب وهو يحاول التقاط أنفاسه الهاربة بصعوبة و..ينطلق صارخًا ليتحرر صوته أخيرًا!
"علي...علي...علي ياجعار"
استفاق الجعار من نومه على صوت مديحة زوجته وجسده ينتفض متصببًا عرقًا كأن أحدهم صب عليه الماء صبًا فانتفض من مكانه وهو يلهث بشدة وعيناه خاويتين تمامًا وهو يتأكد أن مديحة إلى جواره والتي نظرت إليه متعجبة:
"كابوس تاني يامعلم؟!"
هز رأسه موافقًا ومسح جبهته بكفه وقال بصوت متهدج:
"أيوة يامديحة نفس الكابوس ..نفس الكابوس"
"ما هو إنت لو تحكيلي ايه الي بتشوفه في الكابوس يمكن أساعدك؟"
نظر إليها باشمئزاز وقد تمالك أعصابه وعاد إلى سيرته الأولى وقال:
"هه! تساعديني؟ غريبة دي أنا أفتكر إن أمنية حياتك تخلصي من؟!"
"ماهو إنت رضو جوزي ومحسوب عليَ ولازم أساعدك"
تناول علبة سجائر على الكوميد بجواره فأشعل إحدى سجائرها وما نفث دخانها حتى سعل بشدة قبل أن يقول بلامبالاة:
"مفيش حاجة يامديحة نامي ..نامي إنتِ"
اقتربت منه حتى لفحت أنفاسها الدافئة وجهه فلثمت شفتيه بقبلة رقيقة

وهي تتحسس فخذيه بنعومة وتقول:
"طيب ما تيجي أنسيك همومك وكوابيسك!"
دفعها مبعدًا إياها وهو يرمقها بقرف ويقول:
"ماليش نفس آكل من طبق أكل منه صبيي يا مديحة أصلي بقرف"
تراجعت مديحة وقالت بتهكم:
"ومين اللي سمح لصبيه ياكل من طبقك يامعلم؟! مش إنت؟"
قالت عبارتها وقد إكتست ملامحها بمسحة حزينة وهي تردف قائلة:
"هو إنت فاكرني مبسوطة وأنا زي الأكلة العريانة والدبان ملموم عليها؟! أنا نفسي أكون لواحد بس يكون راجلي وحبيبي وغطايا مش عضمة كل كلب يمصمص فيها شوية, لكن راجلي سايبني مش معبرني حتى مش بيغير عليَ وهو عارف إني في حضن واحد غيره ولا فارقة معاه!"
كان يستعد للنهوض من الفراش فهو يحتاج لبعض الهواء النظيف عندما نظر إليها قائلًا:
"احنا من البداية كنا متفقين أنا هسيبك براحتك علشان إنتِ كمان متدخليش في اللي مالكيش فيه, نامي مع اللي يعجبك بس إنسيني فاهمة يامديحة إنسيني"
مر ببصره على جسدها من قمة رأسها إلى أغمس قدميها قبل يستدرك قائلًا وهو يشير إلى أسفل سرتها:
"خليه يشبع زي ماهو عاوز.. وإنت الله أكبر عليك مش عاتقة دكر ولامرة إلا وبتهيصي معاهم عاوزة إيه تاني كل شوية تزني على وداني ليه؟!"
نظرة حزن عميقة وهي تقول بين حمحمات خرجت منها بالرغم عنها:
"عاوزة أنضف ياجعار, زهقت من إني مرة وسخة كل همها إنها تشبع لأن جوزها مجوعها, أنا مش عاتقة راجل ولا مرة علشان مش عارفة أشبع الوحيد اللي هيشبعني سايبني أرمرم من صناديق الزبالة إنت يامعلم مش عاوزة غيرك لكن مش لاقياك ولا فهماك؟ معلم أد الدنيا والكل بيعملك ألف حساب ومع ذلك راضي بالوضع دا راضي على مراتك إنها تبقى...."
قطعت عبارتها لتنهار باكية إلا أن الجعار كان قاسيًا فلم تهتز شعرة واحدة منه متأثرًا ببكاءها واكتفى بقوله:
"إنت عاوزة إيه دلوقتي؟"
قالت بعصبية وهي تمسح دموعها وتنظر إليه بتحدي واضح:
"عاوزة أفهم!"
"تفهمي إيه؟!"
"أفهم إنت بتعمل كدة ليه, وبتغيب فين بالليالي؟..في الأول كنت فاكرة إنك

مالكش في النسوان قلت جايز رجالة كثر من برة ءالله ءالله ومن جوا يعلم الله, لكني اتأكدت أكثر من مرة إنك طبيعي وزي الفل بشوفك وإنت نايم الصلاة ع النبي أسد تحت الجلابية حاجة تخوف, طيب إيه؟ مكفي نفسك بإيه وسايبني كدة حتى لو تعرف نسوان غيري مش هتقبل على نفسك كدة! أكيد في سر؟"
نظر إليها نظرة نارية وقال باقتضاب:
"اسمعي يا مديحة..عيشي..."
كانت قد اقتربت منه ومسحت دموعها وقالت بتحدٍ واضح وهي تنظر إلى عينيه مباشرة:
"أنا لازم أعرف ياعلي..إنت صحيح زي الناس ما بتقول بتتعامل مع الجن والشياطين؟..يمكن كمان متجوز منهم علشان كدة مش بتقربلي وكمان ليلاتي تسهر في الترب وكل الناس بيشوفوك بتدخل الترب بالليل!"
نظر إليها قبل أن يبتسم في ارتياح فربما هي أعطنه جواب يشفي غليلها حتى تصمت فقال:
"جايز..كل شيء جايز...سلام"
قالها وتركها وحيدة في الغرفة تسقط على فراشها منهارة في نوبة بكاء عاتية...

****

صبري الشيردي مثله كمثل بقية شباب المناخلية اعتاد أن يحصل على ما يريد بالقوة أو الإحتيال, لكن أحدًا لا يجرؤ على مواجهتهم أو منعهم فالجميع يخشون كل ما هو مناخيلي!
وبالطبع ما حدث من محفوظ حالة فردية وقد استطاع الجعار تدبر الأمر سريعًا وجعل من محفوظ عبرة لكل أهالي البارودية, فلن يجرؤ أحدهم أن يفكر مجرد تفكير في مواجهة أي مناخيلي مهما كان!
لكن صبري الشيردي لديه مشكلة من نوع آخر.
إنها تلك الفتاة التي لم تفلح كل محاولاته في التقرب منها؛ إنها فاطمة الحشاش, والحشاش هو لقب للعائلة وليست صفة كما يعتقد البعض بل إن والدها سعد الحشاش رجل ذو خلق يحترمه الجميع لكنه لقب متوارث على كل حال!
مشكلة صبري الشيردي أن كل محاولاته للفت نظرها أو التقرب باءت بالفشل حتى عندما تصرف برعون طائشة وتحرش بها سبب لنفسه الإهانة على يد محفوظ فأهدر الأخير كرامته أمام ناظريها ...
ليس من العسير على مناخيلي مثله لم يعتاد التقيد بالأخلاق أو القيم أن يجبرها أو حتى يغتصبها لو أراد, لكن ما يقف حائلًا بينه وبين نفسه الدنيئة هو أمر أقوى منه ومن كل مناخلية الأرض؛ إنه يحبها حقًا..
لم يتصور يومًا أن شاب مناخيلي كل تجارته التسلل إلى أسواق الماشية لسرقة الماشية أو الإحتيال لأخذها من أصحابها, وأحيانًا رعي الأغنام الهزيلة, فيقع في شرك الحب!!
إذا كان للحب معنى أكبر مما يعرفه الناس فإنه ذلك الشعور الذي يعصف بكل خلجة من خلجاته كلما تحركت صورتها في مخيلته أو لمح ظلها, لقد صار مريض بفاطمة..
جميع أصدقاءه من شباب المناخلية وغيرهم يعرفون هذه الحقيقة, فهو لا يفوت فرصة لا يذكرها فيها, إذا كان نهارًا أثناء السعي بالأغنام بين الشوارع والقرى لعرض ماشيتهم للبيع, أو ليلًا في جلسات المزاج عند تدخين الحشيش!
الجميع يعرفون مدى عشقه لها حتى إنهم أحيانًا يتخذون تلك القصة مادة للسخرية فيما بينهم أثناء جلساتهم خلف الضباب الأزرق وفي وجوده هو نفسه فيملأه الغضب ويأخذه الغيظ فيترك مجلسهم أو يتطور به الحال إلى عراك مع شلة الأنس, لكن في كل الأحوال لم يتغير من الأمر شيء هو يهيم بها عشقًا وهي لا تراه, فيزداد بها هيامًا!!

حتى كانت تلك الليلة الغائمة بسحب الدخان الأزرق كما هي العادة والتي اقترب فيها عويس من آذن (الشيردي) وقال:
"عرفت اللي حصل في بيت سعد الحشاش؟"
انتبهت حواس صبري الشيردي دفعة واحدة عند سماع الإسم, رغم توقعه إن الأمر لن يتخطى كونه دعابة سخيفة من دعابات جلسات الحشيش, ورم انتباه حواسه إلا إنه قال بضيق:
"مش رايق لهزارك ياعويس وحياة أمك!"
"يابني بكلمك جد البنت بتاعتك هتتجوز يوم الخميس الجاي وهيعملوا فرح وليلة عند البيت"
بفزع من سماع الخبر:
"هتتجوز؟!..هتتجوز مين؟"
"الواد جلال ابن عباس المنجد واد يستاهل بصراحة, متعلم وموظف حكومة كفاية لبسه النظيف والشياكة.."
كان حديث عويس يحمل بين طياته نبرة استفزاز نجحت في تأثيرها على صبري الشيردي الذي ضرب (الجوزة) أمامه بقدمه فتناثر الفحم المشتعل من حوله حتى كاد إحدى جمراته أن تحرق ثياب عويس الذي نفضها بسرعة مبتعدًا, في حين قال صبري بعصبية مفرطة تكاد تصل حد الصراخ:
"أنا صبري الشيردي إبن المناخلية أسياد البارودية, جلال مين دا اللي تفضلو عليَا!"
هب واقفًا فتبعه عويس وهو يوسوس إلى آذنه كوسواس خناس:
"وهتعمل إيه يعني يازينة الشباب؟"
نظر إليه شيردي متفكرًا للحظة وقد ارتسمت شياطين الدنيا على ملامحه ثم ابتسم ابتسامة خبيثة وقال:
"لو فاطمة مش ليَ يبقى مش هتكون لحد ثاني.."
أنهى عبارته إندفع تاركًا صديقه وجلستهم وكان لدى عويس اعتقاد قوي إن تلك الحماسة لن تتخطى نشوة الحشيش الذي يضرب في أوصال الشيردي, لكن مالم يعلمه أن شيطان الأخير كان أقوى من كل مخدرات العالم وقد زين له الإنتقام إلى أبعد حد...

****

فاتنة..
هذا كل ما يمكن قوله في وصفها بالنسبة لصبي لم تتجاوز سنوات عمره الخامسة عشر, وهو يتابع جسدها شبه العاري دائمًا والذي تهتز كل تفاصيله في كل اتجاه وهي تتحرك داخل المنزل وتلك الهضاب الشامخة تتلاعب بمخيلته!
المراهق ذو الشهوة المتفجرة حديثًا يتابعها فيعتصر شفتيه حتى يدميهما, وتثور براكينه بالرغم عنه فلا يتحكم فيها!
بقصدٍ أو بدون قصد كانت لا تعرف من الثياب سوى ملابس النوم التي تبدي أكثر مما تخفي وجسدها كحلوى (الهلام) بحسب وصف الغلام يهتز بشدة متحديًا لذكورته الوليدة يتابع فخذيها الممتلئين ونهديها الصارخين هيا لتلتهم حلماتي الورديتين كحبتي كرز تبدوان بارزتين أسفل حمالة الصدر! عيناها الكحيلتين تطلق سهامًا من الرغبة تسكر أعتى الرجال في الحال..
أحيانًا يلامس لحمها الطري الدافيء جسد الصبي فيتصبب عرقًا وتلتهب مشاعره وتتقطع أنفاسه اللاهثة, فتطلق ضحكتها الماجنة وتبتعد تاركة إياه مع خيلاته فيهرع إلى غرفته ليفرغ ما في نفسه ..
لكنه للأسف لا يملك سوى الخيال, فالحاجز بينه وبين (حلاوتهم) منيع لا يمكنه تجاوزه مهما أراد!
حلاوتهم أنثى بمعنى الكلمة متفجرة كشلالات نياجرا تدفق أنوثتها في كل شيء, في منتصف العقد الثالث متوسطة الطول ليست سمينة لكنها كذلك ليست نحيلة فجسدها موزع بدقة مبهرة مكتزة في المواضع التي يجب أن تكتز نحيلة في تلك التي يجب أن تنحت, عينيها واسعتين سوداوتين لا يمكن معرفة أهدابها من ذلك الكحل الذي لا يفارق عينيها فيضفي لهما مظهر خاص لا يقل إغراء عن جسدها, بشرتها بيضاء مائلة إلى الحنطية مع مسحة حمراء تفتك بأعتى الرجال!
هو لخص لنفسه وصفها بأنها "أنثى كما يجب أن تكون الأنثى"
تزوجها والده منذ عامين تقريبًا بعد وفاة والدته مباشرة, ورغم فارق السن الكبير فوالده قارب الستين فهو أنجبه بعد معاناة حقيقية, أما هي فشابة في مقتبل العمر ولهذا استطاعت بجمالها وذكاءها أن تصير هي العقل المحرك للوالد وبالتالي للمنزل ككل!
فلا يستطيع الأب أن يرد لها طلبًا ولا أن يرفض لها أمر, فيكفي فقط أن تجذبه من جلبابه باتجاه غرفتيهما و أحيانًا إلى المطبخ فيغلقان الباب لبعض الوقت حتى يخرج الأب الكهل لاهثًا ككلب ظمي في ظهيرة صيف حار

وعلى وجهه إمارات سعادة غامرة رغم شحوب وجهه.
أثناء تلك الخلوة يسمع الصبي خلف الباب المغلق أصواتًا تجعل الحمة تضرب أوصاله فلا تكفيه أنامله العابثة فينفجر شلاله واحدًا تلو الأخر وصوت حلاوتهم يداعب أذنه صارخة متأوهة بغنج, شغوفة هي فاجرة هي شبقة هي..لا تعبأ بوجود ذلك الغلام في المنزل أو حتى بالجيران الذين حتمًا يسمعون غناتها وكلماتها الفاحشة, فيكتفي الصبي باغماض عينيه ورسم صورة وهمية لما يحدث بالداخل ..
حلاوتهم مستلقية مغمضة العينين وشفتيها الحمراوتين كحبتي فراولة تلمعان بعد أن التهمهما التهامًا, وأنينها المكتوم يتصاعد وجسده الضئيل الأمرد بين فخذيها صعودًا ونزولًا فيدكها دكًا فتتعالى صرخاتها وتطلب من الصغير أن يرحمها فيزيد من وطأته وكأنها تطلب المزيد غير عابيء بكلماتها العاهرة فهي ترغبه أكثر مما يرغب فيها, وكل طلب بالتوقف هو في الحقيقة طلب للمزيد..
حتى تأتي اللحظة الحاسمة فيشخر وينخر لتدفق حممه فيروي ظمأ جسدها فتضمه بل تعتصره بين نهديها وتبتسم..
مشهد خيالي يرسمه كل مرة يسترق السمع لوالده وزوجته فتتسخ ملابسه فيشهق خوفأ من أن يلاحظ هذا أحد فيخفي بقعته بكفه الصغير ويستعيد رشده وهو يسمع رتاج الباب يفتح وقد أنهيا مهمتهما, وفي العادة تخرج حلاوتهم أولًا فيراقبها من خلف باب حجرته التي أسرع إليها متناثرة الشعر قد لطخ وجهها بأحمر الشفاه وقميصها المضموم على جسدها بعشوائية ليبرز أحد نهديها من قمته, لكن جل ما كان يلفت نظره في مثل هذه اللحظة هي تلك النظرة المرتسمة على عينيها في كل مرة يحدث فيها هذا نظرة عجيبة لم يعيها يومًا لكنها بالطبع ليست سعيدة إطلاقًا!
يزداد توتره عندما يجدها توجه بصرها إليه مباشرة وكفه لازالت على سرواله فتتجه بنظرها إلى تلك البقعة فتستحيل نظرتها إلى نظرة أخرى تحمل ابتسامة خبيثة خفية قبل أن تتجه إلى دورة المياه..
كأغلب الأوقات يتعالى شخير والده الذي سقط في ثبات عميق بعد معركة وطيس, فمن ذا الذي يملك طاقة للنهوض بعد لقاءه مع مديحة؟!
لا يدري فيما كان يفكر عقله المراهق وهو يتسلل باتجاه الحمام ليجد بابه مواربًا فيلقي نظرة خاطفة ثم يتراجع فيهمس لنفسه مشجعًا على نظرة أخرى..نظرة بريئة لا أكثر –وأي براءة ممكنة مع جسد مديحة العاري!-
غاب الصبي مرة أخر عن الوعي وهو يرى ما يراه فنسى إنه يتلصص وذاب للمرة المائة في نشوته و...

شهق بشدة وكاد يسقط مغشيًا عليه من الرعب عندما شعر بكف يقبض على كتفه, بصعوبة بالغة فتح عينيه وجسده بأثره ينتفض فهو ميت لا محالة هذا هو ما سيفعله والده إن علم!, لكنه تفاجأ عندما وجدها حلاوتهم عارية تمامًا ينساب الماء من على جسسدها الناعم لترسم لوحة يعجز أبرع فناني العالم عن تجسيدها, فتجذبه إلى داخل الحمام وتغلق بابه!
كاد أن يصرخ تعجبًا لكن أناملها على شفتيه منعته وهي تجثو على ركبتيها أمامه فتنزل سرواله....
لم يرى ماذا تفعل لقد مد عنقه إلى أعلى وأغلق عينيه مستسلمًا تمامًا لبراعتها فتضاعفت نيران جسده ملايين الأضعاف حتى شعر بألسنة من اللّهب تخرج من وجهه ورأسه فمد يده ممسكًا بشعرها المبتل ليدفعا بوجهها أكثر وأكثر ثم يوقفها أمامه فتتبادل أنفاسهما ويشعر بجسدها يلامس جسده ويدها لا تكف عن العبث به فيلتهم شفتيها بكل عنف وقسوة حتى كاد أن يدميهما فهو لا يعرف التقبيل ولم يجربه لكنه شعر برغبة عارمة في التهامهما حقًا وكفيه تمزقان نهديها ..
وفجأة ابتعدت عنه لتدير وجهها إلى الجدار وهي تمسك بمعصمه ليقترب منها أكثر وأكثر وقد وضعت جبينها على الجدار ودفعت بجسدها إلى الخلف ودون تردد
أمسك بأعز ما يملك ليدفعه بين أحشائها فتنطلق منها شهقة قوية و..
"علي!...إنت بتعمل إيه؟!"
شعر الصبي علي بالزمن يتوقف للحظات فنسى إنه عاري الجسد وإنه عند أقرب نقطة قد يصلها رجل من جسد أنثى, وإن ظهرها لازال يلمع من أثر البلل وحتى جسدها المرمري الذي ظن إنه لن يمكن أن يبتعد عنه بعد تلك اللحظة قد نساه وقد فغر فاه وهو يرى وجه والده يرمقهما بنظرة تحمل كل معاني الغضب والثورة!
أما ملامح وجه علي الصبي الصغير وحلاوتهم الفاتنة فقد كانت تحمل كل الفهم لمصيرهما المحتوم الأن..
تدفقت دموعها كالسيل وهي تلقي بنفسها العارية على قدمي زوجها تقبلهما وكلها رجاء في الصفح والمغفرة أما الصبي فقد تسمر بموضعه حتى مادت الأرض أسفل قدميه وأعصابه تنهار كليًا فيسقط أرضًا مغشيًا عليه..
الجعار الكبير لن يغفر أبدًا لزوجته وولده فعلتهما مهما حدث....

****

"مش عارف أنا بحكيلك ليه دا كله دلوقتي..لكن اللي أعرفه إني محتاج أتكلم وأخرج اللي جوايا لأي حد وإنت أنسب واحد ممكن أتكلم معاه.."
قالها علي الجعار وهو ينفث دخان نرجيلته فتتصاعد أنفاس الدخان الأزر تعبق المكان بأثره, وهو جالس على مصطبة حجرية وقد ضم أحد قدميه إلى أسفل وثنى الأخرى ليضم ركبتها إلى صدره, ينظر إلى ذلك الشاهد العملاق المزخرف ببضع آيات قرآنية وعلى الأرض أمامه جلس (زلطة) ذلك المجذوب الأبكم الأصم يرص أحجار الحشيش ببراعة لا تتناسب مع مرضه العقلي, وذلك الأخير ينظر إلى الجعار وكأنه يعي ما يقوله في حين إنه في الحقيقة لا يسمع أو يعي حرف واحد لكنه على كل حال ممتن للجعار فهو الوحيد في هذا العالم الي أنقه من مطاردات الصبية وقذفه بالحجارة عندما كان يضرب في الحواري والشوارع بغير هدى وفي يديه زلطتين يضرب بهما ومن هنا اكتسب اسمه فلا أحد يعلم من أين حل هذا المجذوب ولا إلى من ينتمي فقط شخص خرج من المقابر ذات يوم وأخذ يتجول بزلطتيه حتى أصبح وجوده شيء معتاد في المقابر أو بين طرقات البارودية لسنوات, أما الأن فهو خادم للجعار يجلس أسفل قدميه لرص أحجار الحشيش فالأخير يؤنس وحشته الطويلة كل فترة داخل ذلك الحوش والقبر المهجور والذي بفضل بزخ الجعار صار حجرة فارهة للمعيشة تحتوي على كل مقومات الحياة بعدما كانت مجرد حوش لقبر مجهول من دفن بداخله ويبدو أنه قديمًا قد جهزوه ليكون استراحة لزائري القبر وكان زلطة هو من اختاره ليأوى إليه يقيه برد الشتاء وحرارة الصيف حتى ظهر الجعار منذ مدة فزوده بموقد الكيروسين وراديو وعدة الشاي ولم ينسى بالطبع النرجيلة وعدد لا بأس به من أحجار الفخار لزوم الحشيش..
حتى إنه زود زلطة ببعض الثياب بعدما كانت ملابسه الممزقة شديدة الإتساخ لا تقيه من برد ولا حر يلفح جسده القذر..
نظر الجعار إلى زلطة وانفجر ضاحكًا وهو يقول:
"تعرف يازلطة إنك صاحبي الوحيد في الدنيا دي!.. الوحيد اللي أفضفض معاه بأسراري وكل اللي في نفسي من غير ما أخاف من حاجة.. الجعار ما ينفعش يتكلم غيرمع واحد أطرش وأبكم, الجعار بشر زي أي حد بيحتاج أنيس وونيس يتكلم معاه وإنت أحسن واحد للحكاية دي كل اللي يهمك لمة تسد جوعك ونفسين حشيش يعدلوا دماغك, بصراحة ساعات بحسدك على النعمة اللي إنت فيها لأن اللي زيي ما بيشبعش"

أنهى الجعار كلامه وتراجع إلى الخلف وهو يمغم محدثًا نفسه:
"الدنيا كلها ما تشبعش الجعار"
وكأن زلطة مل من هذا الحديث فهمهم وغمغم بعدة إشارات غير مفهومة لكن الجعار فهم ما يقول فقال مصاحبًا حديثه بالإشارة:
"لا..برعي مش جاي النهاردة"
غمغم زلطة مرة أخرى فأجاب الجعار قائلًا:
"لأ أنا جاي النهاردة لوحدي علشان نفسي أتكلم كنت محتاج أتكلم بجد يازلطة"
هز زلطة رأسه أن لا مانع لديه ثم أشار إلى النرجيلة ولسان حاله يقول:
"مادام فيها حشيش تعالى زي ما انت عاوز المكان مكانك"
كانت جملته عبارة عن تمتمات وغمغمات لكن الجعار من طول المصاحبة قد تعلم لغته إلى حد كبير فابتسم وهو يقول:
"ياريت يازلطة الحشيش كان يقدر ينسيني اللي أنا فيه, ياريته يقدر يخليني أنساها..حلاوتهم!..الحشيش فشل ينسيني وفشل يخليني أشوف مديحة وأقدر أشبع جوعها"
مال الجعار إلى بخصره ليقترب أكثر من زلطة وهو يستدرك بصوت خافت آتٍ من أعماق نفسه:
"لما اتجوزت مديحة كنت شايف فيها حلاوتهم بجسمها وجمالها ورغبتها اللي مش بتخلص, وبصراحة مديحة كدة فعلًا مخيبتش ظني لكن المشكلة فيَ أنا, أنا اللي ماشوفتهاش, أنا ماقدرتش أشوف واحدة غير حلاوتهم كأنها هي كل النسوان اللي في الدنيا, ماتفتكرش إني مبسوط باللي بيحصل ولا أنا من اللي بيتمتعوا لما يشوفوا نسوانهم مع رجالة تانية؟..لا خالص دا بالعكس أنا كل ليلة بولع من جوايا وبتقطع مليون حتة, لكني بكتم وبحاول ما أبينش علشان هي تشبع ولما تشبع تسكت ومتسألش, المرة لو ما شبعتش بتتجنن وتفكر وتدعبس على أي حكاية وأي مصيبة وتجري تدور على أي لقمة حتى لو من الزبالة تسد جوعها فأنا قلت أسيبها تشبع تحت عنيّ بدل ما تلم علينا الدبان.."
تنهد الجعار بعمق قبل أن يردف قائلًا:
"هي فاكرة إني موافق على اللي بيحصل وفي الوقت نفسه مش قادر أفهمها الحقيقة لأن الحقيقة أكبر من عقلها اللي مافيهوش غير احتياجها للسرير عمرها ما هتفهم اللي جوايا أبدًا علشان كدة راضي بالوضع الزبالة دا.."
تراجع الجعار مرة أخرى ليسند مؤخرة رأسه على الجدار ليشخص ببصره إلى أعلى وهو يقول متنهدًا:

"اللي قاعد قدامك دا يازلطة ابن الشيطان ..تعرف الشيطان؟"
قالها وانفجر ضاحكًا حتى احتقن وجهه بشدة وكاد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يسعل ويسعل بل أن يقول بصوت لاهث متهدج متأثرًا بنوبة السعال:
"الناس المتخلفين فاكرين إني باجي الترب علشان أعمل أسحار وأحضر عفاريت وشياطين!, ما يعرفوش إن أنا الشيطان نفسه..أنا عملت كل معصية وكل جريمة تخطر على بالك أو ماتخطرش الشيطان نفسه متخيله قاعد بيتفرج على جرايمي ومصايبي ويضرب كف على كف! أهو وأنا هنا بين الأموات لا قشعرت ولا خفت وما اتهزتش شعرة واحدة من رأسي"
التقط أنفاسه لبرهة ثم أشار إلى شاهد القبر الذي يقف أمامه وقال:
"إلا القبر دا يازلطة الوحيد اللي بحس فيه بمعنى الموت, لأن فيه لقيت الحاجة اللي ضاعت مني... أيوة القبر اللي إنت قاعد عليه بترص حجارة الحشيش!..الكل فاكره مهجور وإنت أولهم علشان كدة إنت إخترته لكن في الحقيقة هو مش كدة وصاحبه بيجي يزوره كل يوم.."
وكأن زلطة فهم ما يقول أدار ناظريه بين معلمه وبين القبر وقد فغر فاهه دهشة في حين أردف الجعار قائلًا:
"أيوة هنا تحت رجليك بالظبط دفنوا حلاوتهم, ومعاها دفنوا العيل الصغير اللي هو أنا دفنوا روحه وقلبه وعقله لكنهم سابوا جسمه هيكل فاضي مافيهوش روح ولا حياة أنا كمان مدفون هنا يازلطة ..."
لاح لزلطة أن عينا معلمه ترقرقت بالدموع للحظات قبل أن يمسحهما الأخير نافضًا عن رأسه أحزانه ونظر إلى ساعته لينهض مستعدًا للرحيل وهو يقول:
"يااه أنا اتأخرت قوي, وكمان اتكلمت كثير أكثر من اللزوم, أنا ماشي أروح أشم ريحة رجالتي على جسم مراتي وأكمل ألمي وتعبي"
خرج مترنحًا بخطى متثاقلة لم يعلم إن كانت بسبب الحشيش أم بأثقاله التي يحملها بداخله لكنه بلا شك قد أفرغ اليوم الكثير والكثير مما بداخله بل أن يخرج مغادرًا صومعته وبر حبيبته....
****

تداخلت المشاهد وتزاحمت الأحداث, وأنا بعد مضي كل هذه السنوات أجلس لأريح جسدي المنهك الذي أجهدته كهولتي, وعلى مصطبة محفوظ فأسبل جفنيّ لأراه, وهو يخرج من بين الأحراش وقد نهرني لأذهب؛ وهناك التقى خالد أبوذراع ليضفي على نهار محفوظ المظلم خيوطًا داكنة تزيده ظلامًا، تحمله خطاه إلى حيث لا يدري فهو ليس ذاته, وعقله المشتت بين محفوظ الهاديء الحالم وذلك الشخص مهدور الكرامة على يد المناخلية, بين محفوظ العاشق في صمت ومحفوظ الذي ارتمى بين أحضانة عاهرة الحي..
هو شخصين أحدهما لا يعرف شيئًا عن الآخر يحتويهما جسد واحد!
فجأة وجد نفسه على مشارف منطقة المقابر أمام مقام (أبوالحِمل) ليرى بعض النسوة تخرجن منه وقد أشعلن الشموع وتمسحن بالمقام, تابعهن بنظراته ليجد نفسه يخطو إلى الداخل فيدير بصره بالمكان الذي اتخذ شكل قبة عملاقة في أسفلها مباشرة يقع المقام بثوبه السندسي الأخضر وعبق البخور يعطر المكان بأكمله..
لم يكن محفوظ يومًا من مريدين الأضرحة والمقامات بل على العكس كان دائم السخرية من أولئك الذين يتمسحون بالمقامات والأضرحة فهم يطلبون حاجاتهم من موتى لا يملكون لنفسهم ضرًا ولا نفعا!
لكنه الأن حائر تائه يبحث عن ملاذ, حتمًا لن يجده عند خالد أبوذراع ومن على شاكلته..
اقترب من المقام تحسس كسوته المصنوعة من الديباج الأخضر لا يعرف ما عليه فعله ولا ما يجب أن يقوله في حضرة صاحب المقام!!
لكنه تأكد إنه وحيدًا بما يكفي في ذلك الركن النائي الذي يخفيه عن مدخل المقام..
تسللت حمحمات من بين جفنيه رغمًا عنه.. قبل أن ينهمر في البكاء فبكى كما لم يبكي من قبل, وهو ذلك الجبل الشامخ الرأس يبكي, ينهاروصورًا سينمائية متلاحقة تمر كالبرق أمام ناظريه..
(والده الذي تركه صغيرًا, أمه شبه الكفيفة, صورته هو نفسه ذلك الشاب الهاديء الحالم الذي يحبه الجميع, صور الصبية من حوله على المصطبة ساعة العصاري , محبوبته التي أبدًا لم تعرف إنه يحبها ولم يحاول يومًا أن يخبرها, و.. الجعار يسخر منه وهو مكبل بين المناخلية كالفأر داخل المصيدة وأهالي البارودية يشاهدون تلك المهانة التي لم يعهدها طوال عمره!, ورضا مراجيح وفراشها وأحاديثها الصارخة بالحكمة..)

"بتبكي ليه يابني؟"
بسرعة مسح دموعه التي انسابت كشلال ينهمر على وجنتيه, ونظر إلى مصدر الصوت ليراه بلحيته البيضاء الطويلة وعباءته السوداء ووجهه الأبيض المستدير يشع نورًا ومسبحته الطويلة يمررها بين أنامله، فقال محاولًا التماسك, فهو لم يكن يرغب في أن يراه أحد في مثل هذه اللحظات الضعيفة:
"ببكي على حالي وعلى حال الدنيا .."
ابتسم الشيخ واقترب ليربت على كتف محفوظ وقال:
"وهي الدنيا يتبكي عليها!"
"مش هي حايتنا وعيشتنا, ولما حالها يبقى مقلوب لازم نحزن!"
حرك الشيخ حبات مسبحته وهو يقول بصوت هاديء يتسلل إلى القلب مباشرة:
"الدنيا بيت للي مالهوش بيت يابني, ومال اللي معندوش مال, ما يديلهاش أهمية غير قليل العقل, وعليها يتنازع الجاهل اللي معندوش علم، واللي عنده يقين ما يسعاش ليها, خليها ورا ضهرك يابني"
"لكن الشعور بالظلم والقهر صعب قوي ياشيخ!"
ابتسم الشيخ ليشعر محفوظ إن وجه الرجل قد أصبح مشعًا حقيقة لامجازًا وهو يقول:
"ألا يادعوة المظلوم صبرًا** فنصر الله أتٍ لا تبالي**فلو شاءت ارادته انتقامًا**لأطبقت الجبال على الجبال"
"كلامك جميل يا شيخنا لكن القلب بقى أسود زي ليل مالهوش نهار..عمري ما كنت أعرف أكره حد لكن البشر بغدرهم وظلمهم علموني أكره, كأنهم دلقوا على قلبي دواية حبر أسود.."
"أوعاك يا ابني تستسلم لمشاعر الكره والحقد سيب نفسك للحب, وعلشان تحب لازم تحب نفسك الأول..شيل الستاير السودا عن عنيك, بص دايمًا في مراية نضيفة تعكس الحلو اللي جوا روحك.."
ابتسم محفوظ متهكمًا وهو يقول:
"روحي؟! هي فين روحي دي؟ أنا جسد بلا روح, مجرد هيكل فارغ صورة مجوفة.."
هز الشيخ رأسه بأسى وهو يقول:
"يابني إن تكن تبحث عن مسكن الروح فأنت الروح وإن كنت تفتش عن تفتش عن قطعة خبز فأنت الخبز"
رفع محفوظ حاجبيه دهشة وهو يقول مستفهمًا:

"يعني إيه, مش فاهم؟"
قال الشيخ وهو يضرب بسبابته صدر محفوظ:
"يعني لو قدرت تفهم الفكرة دي هتفهم إن كل اللي إنت بتبحث عنه هو إنت..إنت الروح والخبز الروح والخبز إنت الخير والشر إنت النفس والجسد, إنت الكون كله, لكن الستاير السودا اللي نشرتها على عنيك مخلياك ما تشوفش كل دا, ما تشوفش نفسك"
قالها الرجل ةاستدار مغادرًا ليختفي من أمام ناظري محفوظ كأنه سراب لم يكن تاركًا ذلك العقل الضائع في صراع مرير مع النفس الحائرة..
ساعات وساعات وكأنه قد فقد الوعي تمامًا فتح محفوظ عينيه ليجد نفسه متكومًا في ركن المقام وبلهفة جال بناظريه في المكان شبه المظلم يبحث عن شيء ما!
ربما يبحث عن ذلك الشيخ ذو الوجه الملائكي المشع!
أو ربما هو نسى تمامًا أين هو؟!
بخطوات متعثرة تحسس خطاه ليخرج من المقام وعلى بصيص ضوء خافت مرتجف مصدره تلك الأعمدة البعيدة لمح شبح ضخم الجثة آت من بعيد من أعماق المقابر شبح متثاقل الخطى غير متزن المشية..
ضيق محفوظ عينيه ليرى ذلك الآت في مثل هذه الساعة المتأخرة وكم كانت صدمته بل فرصته التي لن يحوز مثلها أبدًا....
****

كان تأثير المخدر واضحًا على خطواته المترنحة غير المتزنة والتي جعلته يتكيء أحيانًا على بعض جدران المقابر محاولًا تفادي السقوط ليتوقف عدة مرات..
ليسعل بشدة طاردًا أثار الدخان الأزرق من فوق رئيتيه ويبصق ثم يعاود السير محاولًا الاحتفاظ بتوازنه ومن بعيد لاح له ضوء أعمدة الكهرباء المطلة على شريط القطار القديم وعلى ظلال الضوء الخافت المهتز لمح شبح شخص ما يخرج من باب ما عند حدود المقابر, لم تكن الاضاءة كافية ليتبين ذلك الشخص هناك لكن قشعريرة بسيطة تسللت إلى عروقه فأعداءه كثر بل هم أكثر مما يتخيل هو نفسه, وازداد قلقه عندما لمح ذلك الشبح يتوقف وينظر باتجاهه مباشرة, فالشخص هناك حتمًا رآه وربما تعرفه رغم تلك الإضاة الخافتة لكن اتجاه الضوء يفضحه هو في حين يستر الواقف هناك!
لم يكن علي الجعار من أولئك الذين يعرفون الخوف, فالمقابر موطنه منذ أن كان صبيًا, وقد استبدلت تلك الأحداث التي مر بها قلبه بحجر كجلمود صخر, لكنها فقط المفاجأة وجهله بمن ينتظره ما أثار في نفسه الريبة, أن يرى شخص ما في المقابر في مثل هذه الساعة من الليل البهيم اللّهم سوى زلطة الذي تركه توًا في وكره أو من هم على شاكلته من المجاذيب الذين ينتشرون بين أروقة المقابر يهيمون على وجوههم!
اقترب الجعار أكثر من الشخص الواقف ليرى بدوره من القادم من جوف المقابر في مثل هذه الساعة متسربلًا بعتمة الليل..
ضيق الجعار حدقتيه محاولًا التغلب على الظلام ليتعرف على ملامح الشبح على بعد مترات قليلة منه لكن تأثير الظلام كان كبيرًا إذا أضفت إليه الحشيش لكن صوت محفوظ كان كفيلًا أن يوقظ حواسه كلها وهو يقول متهكمًا:
"المعلم جعار بذات نفسه وفي قلب الترب لوحده من غير رجالته؟! يادي الصدف!"
حتى هذه اللحظة لم يكن الجعار قد تبين صاحب الصوت خاصة إنه لم تجمعه بمحفوظ الكثير من اللقاءات ليتعرف على صوته بسرعة, إلا أن الطريقة التي تحدث بها الأخير كانت تنذر بشر لا محالة حاول تجاهله وهو يقول:
"إنت مين يابني؟!"
"إنت لسة معرفتنيش؟ طيب دقق شوية في وشي كدة ولا الجعار الوحش

طلع أعمى العين زي ماهو أعمى القلب؟!"
كانت اللهجة الساخرة التي يستخدمها محفوظ تثير حفيظة الجعار بشدة حتى أن أثر المخدر قد تلاشى تمامًا ليرتفع بدلًا منها الأدرينالين فيدب في كامل أوصاله فيستطيع عقله سريعًا أن يكون صورة للشاب الواقف أمامه:
"مين؟ محفوظ!"
قال الأخير دون أن يتخلى عن سخريته:
"ياه أخيرًا عرفتني يامعلم, ماهو طبعًا هتعرف مين ولا مين ما انت أذيت ناس كتير قوي مش هتفتكرهم كلهم"
سعل الجعار بشدة وهو في الحقيقة يحاول استعادة رباطة جأشه فهو يعلم أن الوضع ينذر بخطر جم, فهو يقف وحيدًا أعزل أمام شاب فتي قد يكون مسلحًا وهو يتذكر سريعًا أن هذا الشاب ضئيل الجسم قد استطاع منفردًا أن يتغلب على ثلة كاملة من شباب المناخلية, ورغم فارق التكوين الجسدي لكليهما فالجعار طويل القامة عريض المنكبين ضخم الجثة على النقيض من محفوظ, لكن عوامل السن وانهماكه في شرب الحشيش قد جعلت من هذا العملاق هيكل خاوي في الحقيقة فما هو سوى صورة معظمة يساعد صوته الخشن الأجش في تفخيمها, هو يشبه إلى حد كبير المؤثرات السينمائية صورة وصوت لكنها بلا واقع حقيقي ..
لكن ما يميز الجعار حقيقة إنه أبدًا لم يكن من أولئك الذين يخشون الموت فهو على يقين كامل أن نهايته الحتمية ستكون بأبشع سيناريو قد لا يتخيله هو نفسه..
لكنه قال محافظًا أو حاول الحفاظ على نبرته القوية:
"واقف ليه كدة ياواد يامحفوظ؟ متربص لي ولا إيه؟!"
ضحك محفوظ وقال:
"ما أنا قولتلك يامعلم صدفة ورب صدفة خير من ألف ميعاد, وبصراحة دي أجمل صدفة اللي تخلي كبير المناخلية بذات نفسه واقف عرقه مغرقه مزعور زي الفار المبلول قدام عيل لسة مهزقه وماسح بكرامته الأرض قدام البارودية كلها...!"
لم يكن الجعار قد لاحظ أن العرق قد سال بغزارة على جبهته, لكنه تجاهل الأمر وشد من قامته محاولًا التظاهر بالقوة وهو يقول:
"مين دا اللي خايف يابن الكلب؟ الجعار عمره ما يعرف الخوف ولما يخاف هيخاف من عيل زيك إنت؟!"
قالها ورفع ذراعه ليهوى بصفعة على وجه محفوظ الذي تلقى ذراعه بكفه ليضغط على معصمه بقوة فيضغط عليها ليشعر الجعار بألم شديد رغم

محاولته عدم ظهور مشاعره تلك بالألم والتي تؤكد قوة غريمه الذي قال:
"ماهو صحيح هتخاف من مين إذا كنت مخوفتش من ربنا؟ بس الغريبة انك لسة بتكابر وإنت لوحدك هنا من غير كلابك المناخلية!"
مظهرًا سطوته أو مخفيًا ضعفه قال الجعار:
"بقى إنت بتتجرأ عليّ ياكلب يابن الخياطة! فاكر إن الكبير هيخاف منك أو هتتهز شعرة واحدة من رأسه؟!"
ضحك محفوظ بشدة حتى ردت شواهد القبور صدى ضحكته المبتذلة قبل أن يمسك بتلابيب الجعار من عباءته فيجذبه بشدة جعلت وجه الأخير يحتقن بشدة وتتصبب وجنتيه عرقًا ومحفوظ ذو الجسد الضئيل يرفعه حرفيًا إلى أعلى حتى شعر بقدميه تكادا تلامسان الأرض قبل أن يدكه أرضًا فيختل توازنه ويسقط جاثيًا على ركبتيه عند قدمي محفوظ وهو يلهث بشدة, وقد لاحت بمخيلته كل النهايات المأساوية الممكنة التي يجب أن ينتهي بها المشهد, وهو من تخيل كل النهايات لكنه لم يعرف إنها ستأتني بهذه السرعة وعلى يد محفوظ ولم يعتقد يومًا نهاية سيكون خلالها راكعًا على ركبتيه ذليلًا أمام شاب لا قيمة له!
فمحفوظ لا يعني يومًا بالنسبة للجعار سوى بعوضة, مجرد بعوضة لا ذكر لها.
الجعار لا يذل فربما يقتل غيلة أو بحادث ما, قد يهاجمه ذئب جائع من ذئاب المقابر لكنه أبدًا لم يرى نفسه راكعًا.. هذه أبشع طريقة يمكن أن يموت بها ..
"شوفت نفسك راكع إزاي عند رجلين ابن الخياطة ياجعار؟ كان نفسي يكون معايا كاميرا أصور المشهد دا, كبير المناخلية راكع على ايه ورجله زي أي كلب, وسبحان الله ياأخي ربنا أختار المكان دا بالذات لحكمة إلاهية!..بص حواليك ياجعار كدة..هنا الكل متساويين مافيش كبير ولا صغير هنا المكان الوحيد على الأرض اللي ما بيفرقش بين البشر, المكان اللي مالهوش كبير"
كان الجعار حقيقة يرتعد فهو للمرة الأولى في حياته يواجه حقيقته, فهذا العملاق ذو الشأن الذي يهابه الكبير والصغير لم يكن سوى جرذ ضعيف تحت عدسة مكبرة صنعت منه وحش أسطوري لكن هذا لم يغير من حقيقته كونه جرذ يمكن لطفل صغير أن يسحقه أسفل حذاه..
يشعر بالزعر وهو من لم يعرف يومًا معنى الخوف, بل عرفه مرة واحدة ومنذ ذلك الحين حذف كلمة خوف من قاموسه للأبد أو ظن هو كذلك عندما نسى أو تناسى غير عالم بدوائر الزمان...
بصوت مرتجف لم يستطيع أن يخفيه قال:
"ما تضيعش نفسك يا ابني, إنت نظيف خليك نظيف زي ما أنت"

"ولما أنا نظيف عملت كدة ليه فيّ ياجعار؟"
"الشيطان عميني يابني عن كل حاجة خلاني أشوف نظافتك خطر بيهدد عرش المناخلية..إحنا مولودين وعايشين بالسواد في قلوبنا..ونجاستنا هي قوتنا من ساعة ما العقايدة ما قتلوا المناخلية الأصليين أيام جدودنا وسرقوا حتى إسم المناخلية بعد ماكانوا خدامين بقوا أسياد ولو فرطنا لحظة هنخسر كل اللي عملناه, لعنة وصابت كل مناخيلي القلوب السودا, ولما التوب الأسود تظهر فيه بقعة بيضا بنفتكر إنها بتشوهه وإنت البقعة البيضا اللي ظهرت في البارودية يامحفوظ"
قال محفوظ متحسرًا:
"ياسلام!!..إنتم إيه شياطين؟ دا الشيطان نفسه مش بالشر اللي جواكم دا.. إنتم حليتم على البارودية من أنهي جحيم اللي زيكم لازم يعيشوا في جهنم مالهومش مكان غيرها"
الوضع كان صعب على الجعار وقد انهارت أعصابه تمامًا وهو ينتظر ما قد يفعله به محفوظ الذي نظر إليه وهو مازال جاثيًا على ركبتيه فبصق بقرف ثم تظاهر بالتفكير قبل أن يقول:
"لو إنت مكاني كنت هتعمل إيه في موقف زي دا ياجعار؟"
رفع الأخير بصره شاخصًا إلى وجه محفوظ دون أن يجيب, فقلوب كقلبه لن تتوانى للحظة في التنكيل بمن يفعل فعلته مع محفوظ فقلبه أبدًا لا يعرف الرحمة مع حتى أقرب الناس فلن يتوانى عن التنكيل بأبشع صورة ممكنة...
ضحك محفوظ وهو يعلم تمامًا ما يدور بخلد الجعار وقال:
"مشكلة البني آدم هوسه بالمقارنات, يقارن نفسه بغيره, واللي معاه باللي مع غيره حتى تفكيره بتفكير غيره ومن هنا بيكون رأي عن نفسه لكنه ما يقدرش أبدًا يكون رأي عن اللي قدامه.."
كانت الخيوط الأولى من الفجر قد تسللت إلى المشهد لتضفي عليه مزيدًا من الإثارة معطية لشواهد القبور في خلفية المشهد صورة مهيبة كأنها أشباح تسعى متسارعة هربًا من النور القادم فتجنح إلى مخابئها المظلمة فهي تخشى الصبح أيما خشية..
تنفس محفوظ بعمق ليملأ رئتيه من ذلك النسيم العليل النقي ثم التفت إلى الجعار الذي خارت قواه تمامًا وقد طالت ليلته فبدت بلا نهاية تذكر فطأطأ برأسه وهو راكعًا في إنتظار اللقطة الأخيرة من هذه الليلة..
مد محفوظ ذراعيه وبحركة مفاجئة أمسك بكتفي الجعار ورفعه لينهض الأخير واقفًا ونظر إلى عينيه مباشرة وقال:
"أنا مش زيك ياجعار ولا عمري هكون زيك, كفاية إني شوفتك راكع ذليل

وكشفت حقيقتك المزيفة أنت ورجالتك ركعتوني بالعافية والكثرة إنما طلعت خيخة وركعت من غير جهد..."
أشار محفوظ بيده في اتجاه البارودية وهو يسترك قائلًا:
"روح ياجعار...روح"
تنفس الأخير الصعداء وهو لا يصدق أذنيه وأن هذه الليلة التي بدأها بزلطة وانتهت به عند قدمي محفوظ قد إنتهت أخيرًا ..
لكنه قبل أن ينصرف رمق محفوظ بنظرة ذات معنى إلا أن الأخير استقبلها بابتسامة ساخرة وهو يتركه خلفه وينصرف.....
****

ألقى على الجعار بجسده المنهك على فراشه بجوار مديحة العارية تمامًا كعادتها فلم يلتفت إلى الرائحة النفاذة التي تفوح من جسدها التي يعرفها جيدًا ويعرف مصدرها فهي لن تفوت ليلةً كهذه حتى تمارس مجونها مع أحدهم!!
كل هذا, لم يكن يشغله في تلك اللحظة ولكن ما يشغله حقًا كان حادث الليلة ولقاءه الغريب مع محفوظ وخاصةً جسده الهزيل الذي لايزال يرتعد وقلبه الوجل لازال
يخفق بشدة..
كحمم بركانية أخذت النيران تشتعل في جسده وبين أوردته فتضرب برأسه وهو يفكر كيف لهذا الحادث أن يمر مرور الكرام, فهو لا يزال يرى نفسه راكعًا ذليلًا عند دمي محفوظ ...الجعار ذلك الوحش الكاسر الذي يكفي سماع اسمه فتنخلع القلوب من بين ضلوعها هاهو يرتجف هلعًا..
لا يملك أن يزيح من طريه حشرة, مجرد حشرة مثل محفوظ ..
رأسه تكاد تنفجر حمم بركانية تتقاذف داخل رأسه والعرق ينساب بغزارة فيغرق فراشه..
منهك هو رغم كل شي..ضعيف هو رغم جبروته..حقيقة مرة اكتشفها الليلة ..فراشه الوثير عبارة عن ابة شوك تمزق جسده, وزوجته الفاتنة الغارقة في مياه الرجال خنجر مسموم يشق كبده..
يتقلب في رقدته عشرات المرات حتى أقلق مديحة رغم جسدها المنهك جراء صراع حميمي مشتعل فقالت بصوت ناعس:
"مالك ياراجل مش جايلك نوم ليه؟ دا أنت كنت بترجع سطيحة!"
رد بصوته الأجش وكأنه آت من أعماق عقله:
"هنام...هنام يامديحة..هنام غصب عن محفوظ وغصب عنك وصب عن الدنيا كلها هنام ملي عيوني كمان.."
أردف حديثه وهو ينهض مغادرًا الفراش كمن يقفز فنظرت إليه بنصف عين مذهولة مما يحدث وهو يلتقط ملابسه ويرتديها بسرعة كمن يهم بالخروج, فقامت من رقدتها بنصف جسدها العاري وعدلت من وضع نهديها المتهدليين على الفراش وقالت مندهشة:
"رايح على فين الساعة دي ياراجل؟!"
أشار بعصاه الأبانوسية وكأنه يهم بتهشيم رأس أحدهم وعقد حاجبيه ليقول:

"هرتاح يامديحة...رايح أدور على راحتي.."
قالها واندفع خارجًا وهي تتابعه وإمارات الدهشة تكسو ملامحها وهو يدفع الباب خلفه بعنف حتى كاد يقتلعه من موضعه..
كان الجعار يعي تمامًا إن استسلامه لما حدث يعني نهايته الحتمية ككبير البارودية وسقوط هيبته هذا إن لم تكن نهايته الموت كمدًا..
لذلك انطلق يجوب شوارع البارودية مسرعًا حتى بدا لمن يراه إنه يهرول, والأهالي الذين بدأوا بدورهم الإنتشار في الشوارع باكرًا سعيًا على أرزاقهم يفسحون الطريق أمامه وهم يتابعونه بأعينهم وهو كالقطار مسرعًا لا يرى أحد ولا يلتفت لأحد وكم كانت التساؤلات تملأ العيون وكذلك الحيرة وربما القلق أحيانًا فالجعار نادرًا ما يشاهد يسير منفردًا بدون مقاطيع المناخلية, وغالبًا هو لا يتجول أساسًا في شوارع البارودية إلا أقل القليل فلا ينزل من برجع العاجي سوى في المصائب أو الكوارث, فهو يتعامل كملك متوج على البارودية يترفع عن الجميع!
وقد أقسم بعض من شاهدوه أن عيناه لم تكونا طبيعيتين إطلاقًا بل كانتا حمراوتين ككأسي دماء كأنهما تشعان لهيبًا لكن نظرتيهما تائهتين شاردتين..
أمام أحد المنازل المتواضعة فوقف الجعار وهوى بعصاه على الباب الخشبي العتيق المتهاوي بكل قوته عدة ضربات كاد الباب أن يسقط تحت وطأتها..
ولعدة دقائق لم يكن من مجيب حتى ظهر من شرفة الطابق الأول والأخير فالمنزل مكون من طابقين أرضي يكاد نصفه يختفي أسفل أرضية الشارع الذي إرتفع مع مرور الزمن والطابق الأول العلوي المنخفض والذي لرجل طويل القامة أن يلامس شرفته الخشبية المتهالكة التي ظهر فيها (خالد أبوذراع) بملابسه الداخلية وشعره المشعث ولحيته غير المهذبة وعيناه محتقنتين أثر نوم عميق فبدا كأنه شيطان رجيم ..لكنه ما إن رأى الجعار أمامه حتى هتف بإسمه مندهشًا:
"الجعار؟!"
"إفتح بسرعة..إخلص"
قالها الجعار آمرًا بعصبية جعلت خالد يلقي بترددده ودهشته خلف ظهره رغم إنه غير مستوعب لما يحدث فقال متلعثمًا:
"حاضر..حاضرثانية ألبس هدومي و...."
قاطعه الجعار بحزم:
"مفيش وقت إنزل زي ما إنت مش هقف على الباب كدة.."
تردد خلد لحظة قبل أن يختفي ليظهر بعد ثواني معدودة عند عتبة الباب ليكونا بعد لحظات يجلسان داخل قاعة الضيوف بالطابق الأرضي ذات

النافذة الوحيدة المسيجة بقضبان حديدية والتي تمكنك من مشاهدة سيقان المارة فقط لانخفاضها عن مستوى الشارع, فبدت القاعة كزنزانة حقيقية فهي غرفة كاملة الاستطالة ضيقة جدًا حتى أن الجالسين على الأريكتين المتقابلتين يجب أن تتلامس ركبتيهما رغمًا عنهما وبدا هذا جليًا في جلسة الجعار وخالد الذي مازال في حالة من الذهول لم يتجاوزها بعد, وإن استطاعت أن تعيده إلى وعيه التام ونفض أي أثر للنوم..
إلا أن الجعار لم يعر كل هذا اهتمامًا بل كان مباشرًا تمامًا وهو يقول:
"عملت إإيه في الموضوع اللي اتكلمنا فيه بل كدة؟"
حك خالد جلد رأسه محاولًا تنشيط دورته الدموية لاستيعاب الأمر بعد, وتذكر ما يتحدث عنه الجعار:
"موضوع ..؟..موضوع إيه يامعلم؟!"
بعصبية كادت تصل حد الإنفجار قال الجعار:
"إنت هتهزر ياخالد؟"
بنبنرة صادة قال خالد:
"يامعلم لاحظ إني لسة صاحي من النوم وإني نايم من ساعة بس, وانت فاجئتني بالزيارة دي وأكيد مش صاحي علشان أهزر!!"
زفر الجعار بضيق وقال:
"تطبيق شرعكم على البنت رضا.."
"آآآآه"
نطق بها خالد وكأنه استعاد ذاكرته فجأة وقال مستدركًا:
"الموضوع دا كلمت فيه الأخوة وهما على أحر من الجمر لتطبيق شرع ربنا, لكن.."
"لكن إيه إنطق؟"
"يامعلم الموضوع مش بالسهولة اللي إنت متخيلها"
"يعني إيه مش فاهم؟"
تراجع خالد وربع ساقيه أسفله في جلسته بل أن يقول:
"الناس عنيها علينا ومش متقبلين حكاية الشريعة دي, وكمان في ناس كثير فاهمة ومنتظرين إحنا هنطبق الشريعة إزاي..علشان كدة لازم شرعنا يتطبق شرعي"
زفر الجعار ضيقًا بفراغ صبر وقال:
"إختصر ياخالد وهات من الآخر..البنت زانية وكلنا عارفين كدة حتى أصغر عيل في البارودية لو سألتوا على رضا مراجيح هيقولك إنها مومس وفاتحة رجليها لأي راجل, فين المشكلة بقى؟"

"كل دا حلو يامعلم لكن شروط إقامة الحد مافيهاش الكلام دا, لازم ضوابط نلتزم بيها علشان ماحدش يعلق علينا ولا يطلع ورانا غلطة"
"يعني إيه المطلوب؟!"
"لازم أربع شهود يشهدوا إنهم شافوها في بتعمل عملتها مع فلان الفلاني ولازم يكون الوضع كامل كالقلم في المحبرة أو كالميل في المكحلة, فهمتني يا معلم؟"
حك الجعار ذقنه بل أن تلوح ابتسامة خبيثة على شفتيه فها هو يصل للنقطة التي أتى من أجلها تمامًا فقال:
"وأنا جايلك علشان أساعدكم في تطبيق حدود ربنا بما يرضي الله ياخالد"
رفع خالد حاجبيه دهشة وقال:
"بقى الجعار بجلالة دره جاي الساعة دي علشان يساعدنا نطبق الشريعة؟ وفي مين؟ رضا مراجيح؟!"
عقد الجعار حاجبيه وقال بصرامة:
"مالكش فيه ياخالد, كل اللي ليك هو إن الشرع بتاعك يتنفذ زي ما إنت عاوز وأنا هخليك تنفذه"
"إزاي بقى يامعلم وأنا وإنت عارفين زباين رضا مين؟ كلهم تقال في البارودية ولو قربنا لحد فيهم هتبقى مذبحة ولو فوتنا حكاية الراجل الناس هتتهمنا إننا جينا عالبنت الغلبانة؟"
"أنا عندي الحل ياخالد, الشهود أمرهم سهل ألف ميين يشهد باللي إحنا عاوزينه"
"طيب والراجل؟"
"موجود يا خالد اللي نلبسه الليلة ومش هيسبب أي مشاكل"
اقترب من خالد بوجهه بدهشة وقال:
"ومين بقى اللي هتلبسوه رضا ومفيش وراه حد يحاسبنا؟!"
"محفوظ..محفوظ ياخالد"
بدت الصدمة على وجه خالد فتراجع برأسه بشدة وفغر فاه للحظات قبل أن يقول بأنفاس بدت متقطعة من أثر الصدمة:
"محفوظ إبن ال....؟"
لم يستطيع إكمال عبارته في حين هز الجعار رأسه موافقًا وهو يكمل لخالد عبارته قائلًا:
"إبن الفران ..محفوظ ابن الفران هو اللي عملها"
"لكن يامعلم, ماحدش هيصدق إن محفوظ...."
"ما لكنش, الناس كلها شافتها وهي مسنداه وواخداه عندها على بيتها لما

ضربناه, وأكيد يعني رضا قامت بالواجب معاه مش هيقعدوا يلعبوا كوتشينة يعني, وإن كان على الشهود قولتلك ما تشغلش بالك, كل اللي عليك تنفيذ الشريعة ...مش دا اللي إنتم عاوزينه؟"
لدقيقة كاملة ألجمت المفاجأة خالد قبل أن يقول أخيرًا:
"بس محفوظ صاحبي يامعلم وإنت عارف و..."
قاطعه الجعار بحزم:
"ودا عز الطلب, علشان تبينوا للناس إن شرع ربنا مافيهوش خيار ولا فقوس وإنك طبقتوا حتى على صاحبك"
بدا أن خالد يدير الأمر برأسه للحظات ثم يبدي الإقتناع فابتسم بخبث وقال:
"كلامك منطقي يامعلم, لكن لما الجعار اللي يطلبها تبقى الحكاية فيها إن؟, متأخذنيش يامعلم .."
قال الجعار مستفهمًا:
"يعني إيه؟"
"يعني الموضوع كبير, والمناخلية اللي ما يعرفوش عن ربنا غير الحلفان بالكذب وهما بينصبوا في السوق على مخاليق الله وفجأة يجي كبيرهم يطلب تطبيق شرع ربنا...تبقى الحكاية كبيرة قوي!!"
"خالد...إختصر وقول طلباتك وماتدخلش في اللي مالكش فيه"
" والله يامعلم الجماعة محتاجين شوية مصاريف وإنت سيد العارفين التبرعات ما بقتش مكفية"
"يعني إيه؟ هات م الآخر وكفاية لف ودوران..لو عاوز فلوس أنا ما بدفعش فلوس لحد, ولو فاكر إنك هتلوي ذراعي بتنفيذ طلبي تبقى غلطان, لمصلحتي ومصلحتك تنفذ وإلا إنت عارف كمان ساعة تلاقي الحكومة هنا جايبة عاليها واطيهاو...."
كانت نبرة الجعار شديدة اللهجة صارمة حازمة تحمل الكثير من التهديد والوعيد وقد تخلى عن نبرة الطلب والرجاء التي اتبعها سابقًا مع خالد الذي استدرج للأمر بسرعة واحتوى غضب الجعار قائلًا:
"لا..لا فهمتني غلط يامعلم إحنا تمويلنا لازم يكون شرعي, والبارودية فيها ناس الشرع بيقول إن أموالهم غنيمة حلال لنا, كل الحكاية إن رجالتك هيدخلوا وإحنا مش عاوزين حد يدخل وإحنا بناخذ ح ربنا من الكفار.."
نظر إليه الجعار وقد فهم ما يربو إليه خالد فانفجر ضاحكًا وقال:
"والله ماحد كافر إلا إنت ياجدع, الشرع عجينة في إيديكم تشكلوه على هواكم"

عقد خالد حاجبيه غضبًا وقال بجدية:
"بلاش الكلام دا يامعلم ..هه قولت إيه؟"
"اتفقنا ياخالد"
قالها الجعار ومد يده مصافحًا إياه وابتسامتين يحملان خبث الدنيا على شفتيهما....

****

في الآونة الأخير اعتادت البارودية على تلك المشاهد الصاخبة..
هرج ومرج والجميع يهرولون في شتى الإتجاهات فلا يمكنك معرفة الآت من الغادي, الجميع يهرولون, مشهد عبثي صار مشهدٌ أساسيًا بين الأهالي!
ودائمًا تلتقط أذنيك السؤال ذاته – إيه اللي بيحصل ياجماعة؟-
دعنا من هذا الحديث الأن ولنسرع الخطى لنلحق بالجموع فنعبر شارع (السلكاوي) لنخترق بدورنا شارع (عبود) متجهين إلى رابطة أبناء الصعيد فننحرف يمينًا بالقرب من الصنبور العمومي الذي يستخدمه الأهالي لمليء أوانيهم بالمياه, وعلى مسافة بضع خطوات وتحديدًا في شارع السوق مرورًا بقطعان الأغنام التي يرعاها شباب المناخلية بفراءها القذر وأجسادها النحيلة, تعبث كما هي العادة بين أكوام القمامة بحثًا عن لقمة يابسة أو بقايا أوراق الخضر من مخلفات السوق فتلوكها بشهية مفتوحة..
فرشات الباعة على جانبي الطريق ببضائعهم من الخضر والفاكهة, وبعض عربات الكارو لبيع الملابس الرديئة أو الشباشب والأحذية سيئة الصنع..
كل هذا لا يعنينا الأن لكن ما يعنينا أن نمضي حيث يهرع الجميع حتى إن الباعة قد تركوا فرشهم وبضائعهم وهرعوا بدورهم لرؤية ما يحدث هناك حيث احتشدت الجماهير كأنه يوم الحشر
وبصعوبة بالغة يمكننا أن نشق الصفوف لنجد أنفسنا مباشرة أمام متجر صغير ينخفض مدخله بعض الشيء عن مستوى الشارع ذو مدخل ضيق بالكاد يسمح بمرور شخص وحيد في حين استغل بقية المدخل كفترينة عرض زجاجية متسخة بشدة يسمح زجاجها بالكاد رؤية معروضاتها وهي مكونة من عدة أرفف احتوت على عدد من أجهزة الراديو العتيقة وبعض ساعات المنبه ذات الجرس وبضع ساعات يدوية وأخرى ذات السلسلة لتوضع في الجيب (ساعة كتينة) ..
ما إن تخطو إلى داخل المتجر حتى تلاحظ ذلك العدد الهائل الساعات المعلقة على الحائط وصورة زيتية كبيرة ليسوع المسيح في الصدارة, وعدة أيقونات متعددة الأحجام االعذراء وصليب خشبي عملاق مزين بمجسم للمسيح..
رغم صغر مساحة المتجر إلا إنه مكتظ بالبضائع التي تعد أغلبها تحفًا فنية حقيقية ..
متجر المعلم جرجس تاجر الأنتيكات!!
جرجس من أهالي الحي المعروفين والذي تربطه بأغلب أبناء البارودية

صداقات فهو من مواليد الحي وقاطنيه منذ ما يارب الخمسين سنة هي سنوات عمره, معروف بين الأهالي بطيب المعشر ومعسول الحديث وكثرة المجاملات, فقلما تجد مناسبة بالبارودية, زفاف أو عزاء أو حتى مريض إلا والمعلم جرجس أول الحاضرين حتى مولد أبو الحمل لا يتخلف عنه جرجس!
وقد توارث ذلك عن والدته أم جرجس التي كانت صديقة- لجدتي رحمها الله- فلم تفوتا عيد أومناسبة إسلامية كانت أو مسيحية إلا وتبادلا فيها الهدايا والطعام..
لم يكن متجر جرجس رغم زخمه بالتحف ذو طابع مميز يجذب الجماهير بهذا الشكل الذي يجعلهم يتجمهرون بضائعه لا تجد بين أهالي البارودية رواجًا اللهم إلا إذا كان الزائر يبيع أحد مقتنيات منزله بحثًا عن المال لشراء بعض الضروريات لأهله, أو رهن شيء ما مقابل مبلغ بسيط يرده بفائدة لجرجس..
لكن هذه المرة كان ذلك المتجر هو محور الأحداث حيث التف حوله بما يشبه الوس عددًا من ذوي اللحى الطويلة والجلابيب القصية والعمامات, يتسلحون بالهراوات الثقيلة والجنازير, بل إن بعضهم حملوا السيوف يدوية الصنع..
كان المشهد أقرب إلى تصوير لإحدى الغزوات في فيلم ذو ميزانية ضئيلة!
في الداخل كان خالد أبوذراع بصحبة رجلين يحملان السيوف, وخلف مكتب صغير الحجم يقف المعلم جرجس بقامته القصيرة وبطنه المترهل ولغده الضخم بوجه أبيض مائل إلى الحمرة يرتعد خوفًا وهو ينظر إلى عيني خالد اللتان تطاير منهما الشرر وهو يقول:
"هات كل الفلوس اللي في الخزنة ياكافر ياعدو الله.."
قال جرجس بصوت متهدج مرتعد أقرب إلى البكاء:
"هتاخد فلوسي ليه ياشيخ خالد, هو أنا عملتلكم إيه حرام عليكم؟"
" دي الجزية اللي فرضها ربنا على الكفار علشان يعيشوا معانا في بلاد المسلمين"
قال جرجس متعجبًا ولم يختفي خوفه:
"بس دي بلدي أنا كمان ياخالد زي ما هي بلدك وطول عمرنا عايشين مسلم ومسيحي إخوات وحبايب إيه اللي جد؟"
قال خالد بحزم وقسوة:
"الكلام دا قبل ما نطبق الشريعة, الناس كانت مغيبة ماتعرفش شرع ربنا الجزية أو الرحيل"

"وهو شرع ربنا إنك تسرقني ياشيخ خالد وتاخد شقى عمري, يا أخي دا عنكم ربنا إسمه العدل!"
بكل ما أوتي من قوة سدد خالد إلى وجهه صفعة مفاجأة انساب على أثرها خيط دم رفيع من بين شفتي جرجس الذي ترقرقت عيناه بالدموع ألمًا وكمدًا, في حين أشار خالد إلى صاحبيه قائلًا:
"أدبوا الكافر.."
لم يكمل عبارته حتى انهال الرجلين بسيوفهم على الفاترينة يهشمانها فيتناثر زجاجها كحبات الرمل وكذلك لم تسلم منهما بضائع المتجر ولا صورة المسيح ليتحول المتجر خلال دقائق إلى ركام, أما خالد فجذب جرجس المنهار بعنف وقال وهو يرمقه بنظرة مخيفة:
"افتح الخزنة دي..."
بأيدي ضعيفة مرتعشة ناوله جرجس مفتاح الخزانة متوسطة الحجم القابعة في ركن إلى جوار المكتب الخشبي الصغير ففتحها خالد وفرد شاله الأبيض يفرغ فيه محتوياتها والتي كانت عبارة عن نقود وقطع ذهبية وبعض الساعات القيمة التي رهنها الأهالي لدى جرجس مقابل الإقتراض..
دقائق قليلة وقد أفرغت الخزانة وقد استحال المتجر إلى أطلال..
كانت عيون المتجمهرين شاخصة إلى ذلك المشهد وقد تسللت بعض الدموع من البعض في حين أكتفى البعضالأخر بمصمصة الشفاة ونظرات الشفقة في حين لم يجرؤ أحد أن يعترض طريق المعتدين والزود عن جرجس الذي أدار بصره وعينيه الدامعتين بين الوجوه مستجيرًا بهم لكن لا حياة لمن تنادي فأهالي البارودية كدأبهم مجرد مشاهدون لا أكثر ولا أقل..
خرج خالد ومن معه لتتسع الدائرة البشرية مفسحة لهم الطريق حتى صار خالد وصاحبيه في المنتصف تمامًا فنظر إلى الجموع متفحصًا قبل أن يقول:
"من اللحظة دي بنعلن البارودية إمارة إسلامية بتطبق شرع ربنا وهيكون على النصارى الكفار دفع الجزية صاغرين, أما البياعين والتجار هيكون عليهم الخراج, وهيمر حد من الإخوة يجمع الخراج والجزية واللي هيعترض إنتم عارفين هيحصله إيه.."
أنهى حديثه فسرت بين الناس همهمات وغمغمات غاضبة لكنها مكتومة فلم يجرؤ أحد على إعلان اعتراضه فالجميع يتملكهم الخوف والرهبة, ابتسم خالد ابتسامة رضا عندما لم يسمع أي اعتراض فانتشر هو ورجاله يجوبون السوق ممرورًا على الباع لدفع الخراج أو بدقة أكثر(الإتاوة) التي فرضها خالد وجماعته فهذا يدفع صاغرًا وذاك يعترض فلا تبرح بضاعته تلقى على

قارعة الطريق وينهال عليه الرجال ضربًا, وأصوات الصراخ والعويل تملأ السوق من الفلاحات اللائي جئن من القرى القريبة ببضائعهن طلبًا للرزق وهن يرون بضائعهن تدهس أسفل أرجل المارة أو دفع ماتحصلن عليه جبرًا.. لكن الجميع يتفق أن كل شيء بالبارودية ينذر بكارثة..

****

ذلك النهار غير المعتاد عل البارودية والذي لوحظ خلاله نشاط ير اعتيادي من جماعة المشايخ –كما يطلق عليهم العامة- وهي صفة يطلونها على ذوي اللحى, غير أن الجميع كان لديهم أمل وحيد يعد غريبًا بعض الشيء لكنه الأمل الوحيد الأن, وهو تدخل المناخلية وكبيرهم الجعار لمنع تلك المهزلة فصاحب عرش البارودية حتمًا لن يقبل أن يشاركه خالد أبوذراع وجماعته في حكم مملكته مهما كان!

لكن ولى النهار وشيئًا لم يحدث حتى أن شباب المناخلية في السو أكتفوا بالمشاهدة من بعيد وكأنما اللأمر لايعنيهم في شيء فهم ينتشرون في كل مكان كعادتهم يستظلون تحت شجرة وارفة يتابعون في صمت أغنامهم تلوك كل ما تقع عليه أعينهم, وبعضهم الأخر على الماهي يلعبون الدومينو والطاولة كأن شيء لم يحدث على الإطلاق..

أما الجعار نفسه فلم يراه أحد بل هو لم يغادر منزله طوال النهار مغلقًا عليه باب صومعته متسمرًا في كرسيه الضخم الشبيه بالعرش يدخن النرجيلة وعيناه زائغتان تنظران إلى المجهول!

إقتربت الشمس من المغيب والبارودية لازالت تغلي منذ حادث متجر المعلم جرجس وما تبعه من اعتداء على الباعة وبعض محال المسيحين في المنطة, حتى أن الأمر طال بعض الفتيات والنسوة بدعوى التبرج والسفور, حالة من الغضب وقلة الحيلة تتصارعان بين ضلوع الأهالي لا يستطيع أحدهم البوح بما في صدره كالعادة, فحياتهم بين كنف المناخلية وبطشهم علمهم الخنوع والخضوع, لكن رجائهم الأن وأملهم أن يتدخل الجعار بالطبع ليس من أجلهم ولكن ليحافظ على سطوته التي يظنون أنها تنتزع منه دون أن يعرفوا أن كل شيء تم بمباركته هو وموافقته هو..

ظل الأخير حبيس صومعته لا يسمع ولا يرى ولا يتحدث تظنه تمثال من الرخام لولا دخان نرجيلته المتصاعد من بين شفتيه ومن فتحتي أنفه..

مع غروب الشمس هوت طرقات على باب الجعار, وبجسد يهتز بدلال وميوعة وثوب منزلي شبه عاري مشدود على الخصر والصدر فتحت مديحة الباب لتجد أمامها عويس صبي المعلم وساعده الأيمن فتبادلا ابتسامتين خبيثتين قبل أن يقول عويس بصوت خافت:

"هو فين؟"

أشارت باتجاه (المندرة) وقالت بغنج:

"جوا من صباحية ربنا قافل على نفسه!"

"طيب أنا داخله.."
أفسحت الطريق لكن بمساحة تجعله يلتصق بجسدها وهو يمر فابتسم لها ابتسامة ذات مغزى قبل أن يضربها ردفها فيهتز كقالب جيلي ثم يغمز لها بعينيه فتكاد هي أن تطلق ضحكتها الرقيعة لكنها كتمتها بسرعة مكتفية بقبلة في الهواء وقالت:
"عاوزاك لما تخلص"
"يخربيت أهلك المعلم هنا!"
"ياواد مش قصدي, عاوزاك في كلمتين مش اللي بالك فيه, هو إنت كل حاجة تاخدها على تحت كدة؟"
قالتها ومصمصت شفتيها ورمقته بنظرة بغي متمرسة وهي تلوك لبانة, جعلته كاد أن يحتضنها لكنه تماسك وعدل من ملابسه واتجه إلى باب المندرة فطرقه ليسمع صوت الجعار متحشرجًا لكثرة فترة الصمت:
"تعالى ياعويس"
دلف عويس بين سحب الدخان الكثيفة وهو يهتف متملقًا معلمه:
"بسم الله ماشاء الله مكشوف عنك الحجاب ياسيد المعلمين..عرفت إن انا من غير ماتشوفني"
بلا مبالاة قال الجعار:
"إيه اللي رماك عليّ الساعة دي ياعويس؟"
"الواد خالد واللي معاه ياسيدنا البين البارودية وما حدش مالي عنيهم, والناس كلها بتسأل الجعار ساكت ليه على اللي بيحصل؟!"
اعتدل الجعار في جلسته وسعل عدة مرات وقال بثقة:
"أنا مش نايم على وداني ياجعر, وعارف كل كبيرة وصغيرة حتى دبة النملة في البارودية, وعمر اللي بيحصل دا ما هيتم من غير موافقتي ومزاجي"
رفع عويس حاجبيه دهشة وقال:
"يعني إنت موافق على اللي بيحصل دا يامعلم؟!"
سعل الجعار مرة أخرى حتى احتقن وجهه وانتفخت أوردتها قبل أن يقول:
"ناس بتطبق شرع ربنا مالنا ومالهم هما ليهم سكتهم واحنا لينا سكتنا ما دام ما داسوش لنا على طرف"
ضحك عويس بالرغم عنه وقال متهكمًا:
"شرع مين لا مؤاخذة؟! الجعار اللي بيقول كدة؟"
ثم صفق بكفيه قبل أن يردف قائلًا:
"دي حاجة ولا في الأحلام يامولانا العارف"
رغم نبرة عويس التهكمية والتي أغضبت الجعار إلا إنه تخطاها وقال

بصرامة:
"دي حاجة إنت واللي زيك ماتفهموهاش ياجلنف, المهم ما تدخلش ولا تخلي حد من عيالنا يدخل ويللا غور بقى مش عاوز وجع دماغ"
تملكت الدهشة والحيرة كل خلجة من خلجات عويس الذي تسمر مكانه للحظات قبل أن يضرب بكفيه متعجبًا ويستدير مغادرًا ليعود الجعار إلى صمته ونرجيلته وهو يغمغم:
"شوية بقر مش فاهمين إن الجعار حاسب لكل حاجة حسابها"
لم يسمع عويس جملة الجعار الأخيرة وهو يغلق خلفه باب المندرة حين سمع صوت بسبسة, فالتفت إلى مصدر الصوت ليرى مديحة تختفي بجسدها خلف جدار يقود إلى ممر صغير يحتوي عدة غرف والمطبخ والحمام..
تلفت عويس حوله ليتأكد أن أحدًا لا يراه وبحذر تقدم إليها حتى إختفى معها خلف الجدار ودون مقدمات هجم عليها ليلصقها بالجدار ويقبض بشفتيه على شفتيها ويده تعبث بنهديها ثم تنزلق إلى أسفل لتحصر قميصها بين فخذيها وهي تزوم مع قبلته الحارة وقد تملكتها الرغبة لكنها تتماسك وتدفعه بعيدًا في رفق وتقول همسًا:
"الله يحرقك هتجنني معاك والراجل هنا هتودينا في داهية.."
زفر بضيق وقال:
"مش قادر أصبر لما يغور هتجنن"
مسحت بيديها على شفتيها ثم انزلت إلى قميصه تداعب أزراره وعلى شفتيها ابتسامة لعوب أثارته أكثر مما هو فيه حتى كاد أن يهجم عليها غير عابيء بوجود الجعار في المنزل ليمزق ملابسها ثم يمزقها هي نفسها تمزيقًا بل أن تقول بصوت ريق متغنج:
"بتحبني بجد ياعويس؟"
دفع بجسده ملتصقًا بجسدها وهو يقول بصوت متقطع لاهث:
"أنا خلاص مابققتش عايش غير ليكي إنتي, جسمي بقى مولع طول الوقت وإنت بس اللي بتطفي ناره"
ألقت برأسها عل كتفه وضمته بقوة وقالت:
"أنا كمان جسمي جمرة مولعة ونفسها حد يطفيها حتى بص كدة.."
قالتها وهي تمسك بكفه لتضعه أسفلها فقال وقد إزداد لهاثه:
"طيب وبعدين أنا كدة هموت؟!"
دفعت بجسده بعيدًا برفق وقالت:
"لا..الجعار هو اللي لازم يموت ياعويس"

كانت تنهي جملتها وتستدير لتولي وجهها إلى الجدار فتلتصق مؤخرتها به إلا إنه أصابته الصدمة من جملتها حتى إنه لم يلتفت إلى وضعها الذي اتخذته ليطفيء ناره وهو يقول بدهشة:
"قصدك إيه؟!"
تغيرت ملامحها فجأة واستدارت لتواجهه وقد حلت نظرات شيطانية غاضبة محل نظراتها الشبقة وهي تقول:
"الجعار لازم يموت ياعويس...علشان إحنا الإتنين نقدر نعيش"
"قصدك يتقتل؟"
قالها وهو يحك ذقنه مفكرًا وعيناه تجوب كل تفصيلة في جسدها البض قبل أن يقول بصوت يشبه فحيح ثعبان:
"يتقتل...وساعتها تبقي لي لوحدي.."
أمسكت بعنقه فجأة لتدس بلسانها بين شفتيه في قبلة متوهجة قبل أن تقول:
"طول عمري ليك لوحدك ياراجلي"
قالتها وذابا في عالم آخر...عالم أكثر دفئًا...بل أكثر اشتعالًا
****

فتح الصبي ذو السادسة عشر عينيه بصعوبة وهو يشعر بدوار يضرب رأسه, ليجد نفسه مستلقيًا على أرضية الحمام الباردة..وفي محاولة بائسة للتغلب على تلك الرؤية الضبابية من حوله محاولًا استعادة كامل وعيه, وعقله الصغير يحاول استيعاب ما حدث, كل ما يتذكره إنه كان معها يلامس جسده جسدها ولهيب الشوق يقودهما؛ قبل أن يدخل والده المكلوم فجأة لكن قلب الصغير لم يحتمل فسقط مغشيًا عليه, هذا كل ما يتذكره..
متحاملًا على أعصابه الهشة نهض علي الجعار ينظر من حوله فلم يجد شيء, هو بمفرده عاري الجسد وحلاوتهم قد اختفت كذلك لا يسمع صوت في المنزل! المكان هاديء بشكل يثير الريبة فهو يعلم أن والده لن يتحلى بالرحمة أبدًا..
متكئًا على الجدران فالأرض لازالت تميد أسفل قدميه اتجه إلى باحة المنزل, لكنه لم يجد سوى الهدوء القاتل –ربما لم يحدث شيء وكل ما مر به لا يتخطى كونه حلم؟ والدليل إنه لازال حي يرزق-
تقوده قدماه المتثاقلتين إلى غرفة والده فيدفع الباب, لكن لا شيء!
هكذا اقتنع عقله المراهق إن كل ما حدث مجرد وهم صورته مخيلته, فما يمارسه ليلًا من المؤكد قد أثر على عقله.
كاد أن يتنفس الصعداء فاتجه إلى غرفته يدفع بالباب لتجحظ عيناه عن آخرهما..
لقد كانت حلوتهم على فراشه عارية تمامًا وشعرها الطويل يتناثر حول رأسها مستلقية دون حركة وقد فغرت شفاهها وجحظت عينيها بشدة..
كان المشهد مرعب بحق اقترب بحذر يهزها وهو يناديها لكن هيهات..
رفع ذراعها ثم تركها لتسقط بقوة فيبدأ وعيه الصغير في فهم ما حدث, لقد خنقها والده ويبدو إنه فر هاربًا, ولكن لماذا تركها على فراشه هو تحديدًا؟ ربما لأن حجرته هي التي تقع بالقرب من دورة المياه؟
لكن تلك التساؤلات سرعان ما تبخرت من رأسه وهو يتفحص للمرة الأولى بكامل حريته جسدها المتفجر والذي لم يستطيع حتى الموت من سلب أنوثته بل قد زاده الموت فتنة وجمالًا ورغبة حتى خصلات شعرها التي تساقطت على عينيها الجاحظتين قد رأى من خلالها نظرة شبق لا يشبع تستدعيانه إليها..
نهدين منصبين كقمتي تل من الثلج تتوسطهما حبتين من الكرز الشهي, وفخذين مرمريين بضين, شعر متناثر فوق الوسادة يمثل عهر الموت, حتى

شفتيه احتفظتا بدمويتيهما رغم الزرقة المتسللة على جانبيهما..
موجة ساخنة أشعلت جسده الفتي الصغير وهو يطالع ذات الجسد الذي طالما داعب خياله حتى ما إذا واتته الفرصة لينهل من عسله فاختطفه الموت منه, لكن هيهات..
لا يفصل بينه وبين الجسد سوى خطوة..خطوة واحدة, وهذه المرة لن يمنعه عنها شيء فها هو وحيدًا وهي حتمًا لن تتمنع بل هي مستسلمة له تمامًا..
اعتلا الفراش ليلثم هاتين الشفتين الطريتين فيبدو أن الأمر لم يمضي عليه الكثير من الوقت فلم تتيبس الجثة بل الجسد طري مرن كما هو تقريبًا شعر به وهو يجوب بشفتيه بين أروقة جسدها بدءًا من الشفتين هبوطًا إلى عنقها ثم هذين النهدين الشامخين فيلتهمهما بشراهة ثم يهبط ويهبط ممرًا شفتيه على كل سنتيمتر من جسدها حتى أغمس قدميها ثم يقفز بجسده الذي ال زال عاريًا فوقها ويفعلها..
لا يتذكر كم مرة فعلها تلك الليلة لكنه فقط يتذكر ابتسامة رضا ارتسمت على شفتيها في كل مرة كأنها تقول هل من مزيد..مريض هو بحبها حتى بوهمه مريض بها..
في النهاية خارت قواه الشابة تمامًا فلم يعد يستطيع إعادة الكرة فسقط إلى جوار الجثة منهك فلف ذراعه حولها محتضنًا إياها وقال:
"مبسوطة ياحلوتهم"
قالها وابتسم ثم لثمها بين شفتيها وسقط في ثبات عميق..
لم يعرف كم مر من الوقت لكنه شعر بيدين غليظتين تقتلعانه من بين أحضانها ليجد أمامه والده وتلك النظرة الغاضبة المبغضة وعينيه كجمرتين متقدتين...
سرى تيار كهربي في جسد الصبي حتى إنه شعر بالسائل الدافيء يتدفق من بين قدميه لقد فعلها على نفسه وهو ينظر إلى والده أمامه..
لم ينبث الأب بحرف واحد لكن صفعة ألقت بالصبي أرضًا على بعد خطوات جعلت طعم الدم يملأ فاه, قبل أن يبصق الأب على وحيده بقرف ويقول:
"هي النجاسة وصلت بيك لكدة؟"
لم يدر الصبي ماذا يفعل إلا إنه لمح جلبابه فالتقطه وبسرعة البرق انطلق هاربًا من وجه أبيه...
شهور كثيرة مرت لم يعرف فيها علي شيء عن والده فلقد وجد نفسه سائحًا بين المقابريقتات على الصدقات والنذور التي يقدمها الزائرين, ولا يصاحب سوى المتسولين والمجاذيب فتبدلت حاله بحال, إلا شيء واحد فهو دائمًا ما

يعود إلى قبر حلاوتهم والذي لم يعرف كيف استطاع والده دفنها لكنه دائمًا يعرف طريق القبر يتمنى أن يستطيع إخراجها فيتحسس ذلك الجسد من جديد والذي بالطبع قد تحول إلى جيفة نتنة إلا إنه أبدًا لم يقتنع أن الدود يمكنه أن يأكل جسد مثل حلاوتهم أو أن الأرض يمكنها أن تسمح بتحلله! فيجلس على شاهد القبر فيبكي ويبكي, حتى كان ما كان..
جثة فتاة طازجة, كانت الفتاة جميلة بل فاتنة ذات جسد مرمري ناعم, كانت الجثة نصف عارية وقد تركت على مصطبة من الحجر ومن بعيد استطاع علي أن سمع صوت التربي يتفاوض مع أحدهم على السعر, يبدو إنه أحد طلبة الطب ويرغب في الجثة من أجل تشريحها لاحظ الجعار أن صوت التربي وزبونه يبتعدان فنظر إلى الفتاة المسبلة الجفنين المستلقية أمامه لتستحبل فجأة إلى حلاوتهم هي بشحمها ولحمها ونظراتها التي لم تفارق خياله وكأنها ترفع كفيها لتشير إليه أن يأتي فيلقي بنفسه في أحضانها, وسرعان ما كان قد انتزع ملابسه وفعلها, نعم إنها المرة الأولى التي يفعلها مع جثة غير حلاوتهم لكنه محدثًا ذاته –للحق إن للجثث طعم أخرومتعة أخرى فهن جميلات هادئات لا يثرن الكثير من الضجيج مستسلمات تمامًا- هكذا وجد ضالته كما اعتقد..
لقد قبض عليه التربي وهو يفعل فعلته لكنه لم يلومه بل اكتفى بابتسامة ساخرة فللرجل أيضًا نزواته والتي عرفها علي من طول اقامته بالمقابر فالرجل دائم اصطحاب الأطفال المتسولين الذين يجوبون المقابل بحثًا عن الصدقات فهو أيضًا لديه شذوذه الخاص فالأول يغتصب الموتى والثاني يغتصب الأطفال فلسان حالهما يقول(لا تعايرني ولا أعايرك الهم طايلني وطايلك)...
عدة شهور أخرى لم يحرم فيها الجعار من الجثث المهداة إليه من التربي الذي صار صديقه حتى فتح أخيرًا قبر عائلة الجعار مرة أخرى ليدفن والده وبهذا عاد الجعار إلى منزله وحياته لكنها حياة تختلف تمامًا عن تلك التي فارقها, فهي حياة بلا قلب أو روح, حياة للموتى وللموتى فقط ...
أسند الجعار برأسه إلى الجدار وهو يطلق تنهيدة حارة أخرج فيها كل ما في نفسه ثم نظر إلى زلطة المستمع الأصم وتركه عائدًا إلى داره من جديد....
****

بخطى مترنحة أخذ يشق طريقه بين حواري و أزقة البارودية بداية من شارع الجبانة الشرقي الذي يقسم المقابر إلى شطرين وهو يطلق ضحكاته الحمقاء بين فينة وأخرى عندما يتخيل ظلال أشجار الكافور الوارفة والتي تنتشر داخل أحواش المقابر مع نسمات الليل تتراقص وكأنها أشباح تتلوى جيئة وذهابًا, وقد فعل الكحول المغشوش أفاعيله برأسه, لكنه لم يلبث أن يعي إنها مجرد أشجار يتلاعب الهوا بأغصانها فيعكس ضوء القمر الباهت ظلالها حتى ينفجر ضاحكًا:
أكمل مسيرته والجدران تتلقفه بعضها من بعض فهو لا يستطيع السير متزنًا فما شربه الليلة كفيل أن يغيبه عن الوعي لشهور..
أصوات نباح الكلاب الضالة يتبعه يشق سكون الليل فلا يلبث أن يضحك دون سبب واضح وهو لازال يشق طريقه إلى شارع البارودية الوسطاني حيث الطريق القذر الممتليء بمخلفات السوق والباعة ورائحة السمك الفاسد تعبق الأجواء مختلطة برائحة بعض الفواكه الفاسدة والتي خلفها الباعة أثناء النهار..
حاول أن يحافظ على هدوء ضحكاته وهو يغمغم ببعض النكات لنفسه ثم يضحك وهو يتخيل إن أحد السكارى بخمارة جورج الواقعة بشارع الشط القبلي حيث قضى ليلته يعب من الخمر المغشوش فيضحك ثم يعي للسكون من حوله فيضع أنامله على شفتيه كاتمًا ضحكته وهو يحدث نفسه قائلًا:
"أسكت هتفضحنا الله يخربيتك"
ثم يتذكر أين سمع هذه الجملة فيتذكر الممثل علي الكسار بلكنته النوبية فينفجر ضاحكًا وهو يقلده..
عبر أحد الشوارع المغطاة بروث الماشية شق طريقه بين منازل المناخلية حيث يعد هذا الشارع بمثابة مملكة خاصة بهم فجميع المنازل من المناخلية, سار حتى وصل إلى مقابر الرمادية ثم إنحرف يسارًا إلى صنبور الماء القديم فإغترف بكفه جرعة كبيرة من الماء قبل أن يكمل طريقه مترنحًا وقد زادت نسمة الهواء الليلية العليلة من تأثير الكحول الخام الذي عبئه في جوفه طوال الليل تحت مسمى الخمر.
رغم ثمالته إلا أن شيئًا وحيد ظل واعيًا له تمامًا وهو وجهته التي غادر خمارة جورج وهو يتجه إليها مباشرة..
عبر شارع عبود لينحرف يمينًا وأبو محسن بائع الفول ينظر إليه قبل أن يمصمص شفتيه وهو يستعد لنصب قدرته قبيل الفجر على موقد

الكيروسين كما هي عادته منذ أكثر من ربع قرن من الزمان, وهناك إنحرف يسارًا إلى شارع الفرن فالتقطت عيناه ذلك المشهد الذي أعاد جزء كبير من وعيه إليه..
الفراشين يزيلون مظاهر الزينة والفراشة لحفل زفاف شعبي كان هنا منذ سويعات فها هم على عربة كارو يرفعون عروق الخشب والأقمشة الملونة وبعضهم يجمع المصابيح ذات الألوان المتعددة..
نظر (صبري الشيردي) إلى ما يحدث وهو يشعر بمرارة الحسرة تملأ حلقه فتقتلعه من مكانه حتى إنها أطاحت بكل هذا الكم الهائل من الكحول من رأسه, فهنا كان حفل زفافها.
زفاف فاطمة الحشاش ال‌تي عشق التراب الذي تدوسه بقدمها, لكنها زفت إلى رجل غيره.
إلا إنه أقسم لنفسه إنها ستكون له ولن تكون لأحد سواه, وهو يصر على ألا يحنث بقسمه أبدًا ولو دفع حياته ثمنًا لهذا وليكتسب بعدًا من الشجاهة عب مخزن الخمر الرديء بأثره في جوفه من خمارة جورج, وهاهو بينه وبين شقتها الجديدة مع زوجها بضع خطوات لا أكثر..
أسند برأسه إلى جدار وهو يعبيء رئتيه بالكثير من الهواء ويتحسس شيء ما صلب في خصره بين طيات ملابسه ويلقي نظرة سريعة على عمال الفراشة المنهمكين في عملهم ليتسلل بعدها إلى منزل متوسط الارتفاع مقسم إلى عدة طوابق بكل طابق شقة سكنية مستقلة, صعد السلم الرخامية للمنزل وسرعان ما عرف الشقة المقصودة فعبر شراع السلم كان يظهر عليها شريط من الأضواء الملونة يميزها لم ينتزعه الفراش بعد, وقف صبري ليلتقط أنفاسه المتلاحقة ويتمالك رباطة جأشه ثم أتخذ قراره ودق الباب بعنف..
بعد دقيقة فتح الباب ليظهر شاب وسيم يرتدي منامة حريرية عرف صبري الشيردي من فوره إنه العريس:
"نعم؟..أي خدمة؟!"
قالها العريس وهو يتفحص الشيردي متعجبًا في حين قال صبري ساخرًا:
"انت بقى عريس الغفلة اللي فضلته عليّ؟"
بغضب قال الشاب:
"إنت مين وعاوز إيه بالظبط؟"
"أنا أخد حاجتي من هنا, اللي نايمة جوا دي تخصني أنا ..أنا وبس"
بقوة وغضب دفعه العريس وهو يقول:
"يللا ياولد غور من هنا بدل ما أوريك شغلك الساعة دي"

لم يكمل الشاب جملته حتى شعر بنسل خنجر يدوي الصنع يمزق غشاء بطنه فيسقط من فوره مدرجًا في دماءه, ودون أن يعبأ به تخطى الشيردي الشاب الغارق في دماءه إلى فاطمة التي لمحها تختلس النظر من خلف أحد الأبواب فأخذت تصرخ وتصرخ وهي تغلق الباب بقوة محتمية منه إلا أن الشيطان كان قد تملك كل عقله فدفع الباب بكتفه بقوة وهو يصرخ قائلًا:
"إفتحي يافاطمة..إفتحي يابطة, مفيش حاجة هتمنعني عنك لو حتى سور حديد بردو هوصلك هوصلك"
"إنت عاوز مني إيه حرام عليك!"
"عاوزك إنتي..إنتي بتاعتي أنا وبس ولو ما أخدتكيش يبقى ماحدش غيري ياخدك.."
مع جملته الأخيرة انهار الباب على أثر ضرباته ليجدها أمامه متكومة بثوب نوم أبيض يناسب ليلة عرسها وهي تبكي منهارة..
اقترب منها ليمسك بكتفيها فيجدها ترتعد بشدة:
"أنا بحبك يابطة..مقدرش أعيش من غيرك"
قالها ودمعتين حائرتين تفارقان جفنه..
وبصوت متوسل متهدج قالت:
"أرجوك سيبني في حالي..الجواز قسمة ونصيب.."
دفعها بعنف إلى الفراش وهو يقول بهيستريا:
"إنت قسمتي صب عنك وعن الدنيا كلها, المفروض أكون أنا اللي هنا مش هو..ودلوقتي هاخد حقي.."
حاول الهجوم عليه لكنها تحركت من أمامه وهوت على ظهره بمصباح الكوميد فاستشاط غضبًا وهوى على وجهها بصفعة ألقت بها أرضًا قبل أن يبرز خنجره ويمسك بشعرها بعنف فترفع ذقنها إلى أعلى فينحر عنقها نحرًا فتسيل دماءها أنهارًا متدفقة ..
نظر إلى فاطمة وبركة الدماء من حولها ثم صرخ...صرخ بكل ما أوتي من قوة وهو لا يعي ما حدث حتى استفاق على صوت تجمع الجيران فعاد إلى رشده وفر هاربًا وهو يلوح بخنجره الملوث بالدماء في وجه كل من يحاول اعتراض طريقه حتى إختفى عن أعين الجميع تمامًا....
****

"اهرب يامحفوظ أحسن لك"
قالها خالد ابو ذراع بمجرد رؤيته للأول وهو يخرج من باب مقام ابو الحمل
قالها مجردة بدون اية مقدمات او حتى القاء التحية ..
نظر أليه محفوظ نظرة متسائلة تحمل كل معاني الدهشة قبل ان يقول
"انت شارب حاجة ياخالد؟!"
امتعض وجه الأخير مشمئزا وهو يقول غاضبا
"شارب ايه والعياذ بالله يامحفوظ انا ملتزم ولا أقرب المنكرات والحمد لله!"
ضحك محفوظ من طريقة خالد وقال
"اصل مش من الطبيعي ان اول وشك ما ييجي ف وشي ومن غير سلام وكلام تقول اللي قولته دا؟!"
تنهد خالد بعمق وهو يستجمع حديثه ليقول وقد وضع كفه على كتف محفوظ
" بص ياصاحبي انا بدور عليك من الصبح لحد ما عرفت انك هنا علشان اقولك انك ف خطر ولازم تختفي م البارودية وبسرعة"
رفع محفوظ حاجبيه دهشة وهو يقول
"انت جاي مخصوص تقولي كدة؟ طيب ليه وضحلي يمكن افهم"
صمت خالد للحظات وهو يحاور نفسه هل يخبر محفوظ بالحقيقة أم لا؟ وأخيرا استقر رأيه ان يتحدث فهو يعرف صديقه القديم جيدا فهو يتمتع بقدر كبير من العناد لهذا قال
"الجعار طلب مني اقيم عليك حد الزنا انت والبنت رضا مراجيح وجهز الشهود، الواضح انه قرر يخلص منكم انتم الاتنين بأي ثمن"
ضحك محفوظ حتى انتفخت عروق عنقه ووجهه فاحتقنتا بالدماء ثم سعل بضع مرات قبل ان يقول متهكما
"اتفقت معاه؟ طيب ايه بتخاف علي قوي ولا مش عاوز تطبق حد ربنا؟ قولي يمكن افهم؟"
"محفوظ انت صاحبي طول عمرك، يمكن طريقنا اختلف وكل واحد راح ف سكة لكن العشرة القديمة حتمت علي اني احذرك من اللي هيحصل"
"والعشرة القديمة ما افتكرتهاش ليه وانت بتتفق مع الكلب ابن الكلب ولا تدينك ما يمنعش انك تحط ايدك ف ايد واحد نجس زي الجعار وتنفذ له هدفه بحجة الدين والشريعة؟!"
"دي حاجات ما تفهمهاش يامحفوظ، مصلحة الجماعة والدعوة كانت مع

الجعار علشان نوصل للتمكين واقسم لك لو تمكنا هنقضي على كل الفسقة والظلمة والمفسدين لكن لكل شيء أوان"
"دا على اساس انكم كدة مصلحين لما تتفقوا علي وعلى بنت غلبانة زي رضا تبقوا بتصلحوا المجتمع؟!"
"رضا زانية وانت عارف كدة مش ظالمينها يعني!"
"بس كل رجالة البارودية ناموا معاها يبقى تحاسبهم كلهم وانت اولهم ولا نسيت يا خالد؟"
ابتلع خالد ريقه بصعوبة وقد اكتست ملامحه بالغضب وقال
"انا جاي اعمل بالعشرة والعيش والملح وقد اعذر من انذر وانت حر يامحفوظ "
استدار خالد مستعد للرحيل قبل ان يلتفت ويقول مستركا
"احنا هنفذ بكرة بعد صلاة الجمعة وصدقني مش هقدر اساعدك اكثر من كدة"
قالها وانصرف تاركا محفوظ في حيرة من أمره فهو لم يعرف أبدا الخوف إلا أنه يعرف هؤلاء جيدا فقلوبهم صلدة لا يعرفون الرحمة وكذلك الجعار فلقد بيت النية للإنتقام منه ومن رضا وقد خطط للأمر بذكاء فهو لن يظهر في الصورة بل سيبدو الامر وكان الجماعة تمارس اعمالها الشرعية كما يصورون للبعض!
حقيقة يجب ان يعيها جيدا هو ضعيف وحيد لن يفيده عناده وشجاعته فالشجاعة هنا ضرب من الرعونة والحماقة مر الكثير من الوقت ومحفوظ متسمرا في مكانه يحاول اتخاذ القرار السليم لكن كما يقول المثل (الطبع غلاب) كان فراره من وجهة نظره جبن وهو ليس بجبان ولن يغفر لنفسه أبدا إنه هرب من المواجهة!
لهذا سلك طريقه المعتاد عائدا إلى منزله ووالدته التي ما شعرت بعودته حتى انفجرت باكية مولولة فهرع إليها يمسك بذراعيها بحنو وهو يصرخ متسائلا
"مالك يا أمي إيه اللي حصل؟"
قالت منتحبة
"هيقتلوك ياضنايا، اقولك اهرب اهرب بعيد عن المخروبة بلاد الله واسعة"
رفع حاجبه دهشة وقال
"هو خالد عدى عليك؟"
"ايوة وقالي إن المناخلية مش هيسبوك ف حالك وناويين عالغدر"
ابتسم بصعوبة محاولا طمأنة أمه وهو يقول

"طيب ويرضيك ابنك. يكون جبان؟"
"لا بس كمان مايرضكش اعيش لوحدي وانا عامية اقضي اللي باقي من عمري اتحسر على ابني اللي راح غدرا!"
"لكن يا أمي....."
قالت مقاطعة
"مالكنش يامحفوظ، إمشي ابوس على رجليك إمشي بعيد"
"واسيبك لوحدك؟!"
"ما انا طول عمري لوحدي حتى وانت معايا كنت لوحدي بس كنت مطمنة عليك مش هتبقى وحدة وحسرة قلب"
احتضن أمه بحب وقد ترقرقت دمعات من عينيه وهو يرى أمه ملتاعة يمزقها الخوف عليه، ها هو الأن يجد في نفسه نقطة ضعف جديدة هل يقف بطلا ليرضي غروره فيقتل الحزن أمه؟ ام يفر هاربا متخليا عن محفوظ الشجاع الذي يرفض واقعه الضعيف الفقير؟!
حيرة ما بعدها حيرة، خياران أحدهما مر والآخر اكثر مرارة ..
شعرت الأم بما يدور برأسه وهي تعرف مدى العناد الذي يتحلى به ابنها لهذا تحررت من بين ذراعيه وسقطت على ركبتيها محاولة تقبيل قدمه مما جعله ينحني ليمنعها بكل قوته وقد انهمرت دموعه لتختلط بدموعها ثم يقول بحسرة الاستسلام
"أمرك يا امي، انا همشي وإن شاء الله ف اقرب وقت هرجع اخدك من هنا"
بدا بعض الارتياح على وجه الأم العجوز، لكنه لم يمنع شلالت من الدموع .. دموع الوداع وهي تودع وحيدها بدعواتها وابتهالتها التي تحمل كل نيران قلبها وهو يغادر لأول مرة منزله إلى أجل لا يعلمه سوى الله وحده..
****

لنرى ما يحدث الآن في البارودية ربما نحتاج إلى طائرة عمودية لنستطيع المشاهدة جيدا ..
عند ساحة فسيحة أمام مغلق أخشاب ابو الحسن حركة دؤوب من بعض رجال ابوذراع وهم يقومون بحفر حفرة صغيرة تكفي لزرع شخص واقفا بطوله تقريبا وقد تلوثت ثيابهم البيضاء بالاتربة والأوحال وتغبرت لحاهم الطويلة وسط دهشة المارة والأهالي مما يفعله المشايخ كما يسمونهم!
وعلى مسافة عدة شوارع وتحديدا في شارع عبود كان خالد ابوذراع نفسه ومعه ذمرة من رجاله المسلحين بالهراوات والسيوف يتقدمهم الاول يحاصرون أحد المنازل في حين كانت مجموعة أخرى منهم قد اتجهت إلى منتصف الشارع ليطرقوا بابا قديما متهالك ستعرفونه على الفور إنه منزل محفوظ! وما إن فتحت الأم العجوز حتى داهم ثلاثة رجال المنزل دافعين الأم بكل قسوة حتى اصطدمت بالجدار لتسقط متأوهة دون ان يلتفت إليها أحدهم، فهدفهم واضح إنهم يريدون القبض على محفوظ، تجمع الجيران والمارة على بعد خطوات من المنزلين لمشاهدة هذا الحادث العجيب فهي المرة الأولى منذ سنوات التي يداهم فيها ذوي الذقون المنازل والأغرب أن يكون منزلي محفوظ ورضا مراجيح ..
مشهد شديد التعقيد يحتاج إلى عبقرية فذة لإخراجه ونحن ننتقل ما بين منزل محفوظ الذي بعثر أثاثه القليل بعشوائية وعنف على ايدي المهاجمين بحثا عن الشاب حتى ياسوا من إيجاده فيخرجون تعتلي ملامحهم الغضب والحيرة وهم خالي الوفاض، أما عند منزل رضا بقيادة خالد نفسه كان الامر مختلفا عندنا فتحت رضا الباب بنفسها فدخل خالد ابوذراع وحده إلى المنزل تتبعه دهشة رضا التي لمحت الرجال بالخارج إلا أنها كعادتها المتهكمة قالت
"هو الشوق رماك يا..شيخ خالد ولا إيه؟"
كان وجهه قاسيا بلامح شديدة الصرامة عندما صفعها لتسقط ارضا وخيط دماء يسيل من بين شفتيها وهو يقول
"اخرسي يافاجرة..."
بصقت من فمها الدماء وحاولت النهوض ورغم ألم فكيها إلا انها ابتسمت ومدت يدها إلى مابين فخذيه قائلة بنفس النبرة الساخرة
"الله مش الفاجرة دي برضو اللي كانت بتريحك يامولانا!"
لم يجيبها إلا بركلة عنيفة اسقطتها مرة اخرة وهو يصيح في رجاله

"قيدوا العاهرة"
دون تردد اندفع إلى الداخل رجلين اشداء وبكل قسوة شدا ذراعيها إلى خلف ظهرها مكبلين إياها بحبل من لوف النخيل الخشن حتى شعرت برسغيها تتمزقان بعنف ثم يقتدانها بثوبها الشفاف الذي تدلى من فتحت الصدر نهديها وشعرها المصبوغ يتناثر بعشوائية حول وجهها وسط شهقات المتفرجين وتساؤلاتهم، خرج ابوذراع خلفهم فنظر إلى المتجمهرين قبل ان يقول
"المرة دي زانية واحنا هنطبق عليها حد ربنا عند ابوالحسن ودا مصير كل فاجر فاسق في البارودية"
تبادل الجميع النظرات الذاهلة والحائرة حتى سمعوا احد الرجال وقد تملكته جرأة مفاجأة وهو يقول
"لكن العقاب دا شغل الحكومة مش شغلنا احنا!"
نظر إليه خالد نظرة غاضبة ناقمة جعلت الرجل يندس خوفا بين الجموع قبل ان يقول خالد
"احنا هنا بنطبق شرع ربنا، لكن الحكومة كافرة مش بتطبق الشريعة واللي هيعترض كافر مرتد والشرع بيقول الكافر يتقتل فاهمين يا.....مسلمين ولا نسيتوا شرعكم؟"
اكتفى الجميع بالصمت في حين اقترب احد رجال المجموعة الذين داهموا منزل محفوظ من خالد ليبلغه بأنهم لم يعثروا عليه فهز خالد رأسه ان لا يهم وفي موكب غريب تحرك الجميع متجهين إلى ساحة ابو الحسن لتنفيذ العقوبة على رضا التي لم تبرح تصرخ مستغيثة بالأهالي فلا ينالها سوى نظرات العطف او الشماتة احيانا أخرى ....
لم يكن هذا هو المشهد الوحيد المثير في البارودية في هذه اللحظة فعلى مسافة ليست بالبعيدة كان هناك حدث آخر لا يقل إثارة عندما حاصر رجال الشرطة احد المنازل بحثا عن صبري الشيردي القاتل الهارب وخارج كاردون أمني فرضه الجنود تجمع عدد كبير من الأهالي وهم يتابعون تحقيقات الضباط والنيابة ولا يكتمل المشهد إلا بالأسطى سعد الحشاش وزوجته يبكيان بحرقة والأخيرة تهيل التراب على رأسها كمدا على ابنتها في حين يصرخ الزوج
"عاوز استر بنتي...ابوس ايديكم سيبوني ادفنها"
مصمصة الشفاة وبعض الدموع المتعاطفة من المتجمهرين والجنود يبعدونهم عن المكان مشكلين سلسلة بشرية، وفي هذه اللحظة يخرج من البيت المحاصر ثلاثة رجال احدهم معروف للجميع إنه علي الجعار

وبصحبته رجل ذو ملابس رسمية مميزة تعلو كتفيه رتب شرطية كبيرة اما الأخير فذو بذة انيقة تهامس الجميع انه وكيل النيابة والذي قد حضر للمعاينة ..
ما إن خرجوا من المنزل حتى وقف ثلاثتهم فقال وكيل النيابة
"انا هأمر بدفن الجثث حالا علشان نهدي الأهالي وانت ياسيادة العقيد مهمتك انت ورجالتك تقبضوا على صبري الشيردي بأسرع وقت القضية منتهية كل الشهود بيأكدوا انه هو القاتل"
هز الضابط الكبير راسه موافقا وقال
"اكيد يافندم في اقرب وقت هيكون قدام سيادتك"
بتحية مقتضبة انصرف وكيل النيابة تاركا الضابط والجعار والذي التفت إلى الضابط قائلا
"ياباشا سيادتك ما قولتليش هتعمل ايه مع الجماعة اياهم؟"
ابتسم الضابط وقال
"اطمن ياجعار الظروف كلها لمصلحتنا، والحادثة دي احلى صدفة ممكن تحصل لأنها خلت وجودنا في البارودية شيء طبيعي ما يثيرش اي قلق ليهم"
همس الجعار متساءلا
"يعني؟..."
ربت الضابط على كتفه وقال
"ماتقلقش ياجعار ما تقلقش بس انت كمان شوفلنا موضوع الولا صبري دا لازم نسلمه للنيابة"
"اوامرك ياباشا بالكثير بكرة هيكون تحت رجلين معاليك"
دون تعليق تقدم الضابط إلى احد رجاله وهمس إليه ببعض الأوامر التي انصرف المساعد على اثرها مسرعا لتنفيذها في حين صرخ الضابط في جنوده قائلا
"يللا ابعدوا الناس دي "
ثم التفت إلى سعد الحشاش قائلا
"وانت تقدر تدفن بنتك زي ما انت عاوز"
سرعان ما انتهى المشهد وانطلق سعد لإعداد جثمان ابنته للدفن بين اصوات العويل والصراخ والبكاء...
وبالعودة إلى الساحة امام مغلق ابوالحسن نجد رضا مراجيح تقف مواجهة للحفرة التي اعدها رجال الجماعة واحد الرجال يقول بصوت جهوري
"لقد امرنا الله تعالى بتطبيق حدوده حتى لا تشيع الفاحشة ويقول النبي

صلى الله عليه وسلم من راى منك منكرا فليغيره...هذا وقد ثبت بشهادة الشهود ان هذه الفاسقة قد ارتكبت جريمة الزنا مع الفاجر الهارب محفوظ ولهذا قررنا تطبيق حد الرجم عليها وعلى الزاني الفاسق بمجرد القبض عليه"
انتهى من خطابه القصير وأشار للرجال الذين دفعوا برضا الى الحفرة حتى اختفها جسدها المنتفض كله داخل الحفرة ماعدا عنقها وراسها فالتقط الرجل الذي كان يخطب فيهم حجرا وقذفها به فأصاب رأسها مباشرة ومثله حذا رجاله حذوه فانهمر سيل من الحجارة على راس رضا ووجهها الذي اختفت ملامحه اسفل شلالات من الدماء و.....
التفت الجميع على صوت صراخ احدهم قائلًا:
"حكووووووومة"
وكانت صيحته كفيلة لإختفاء الجميع ليبدأ مشهد جديد أكثر إثارة وبشاعة لتشهد البارودية ليلة اخرى ليلة من الجحيم..

****

مشهد رأسي آخر ...
ليلة حالكة الظلمة ...
في السماء المظلمة تومض أضواء خافتة باللونين الأحمر والأزرق تنبعث من سيارات الشرطة التي اخذت سرائنها تشق سكون الليل فالشرطة تحيط بالبارودية من كل اتجاه تقريبًا ورجال الأمن المركزي بأسلحتهم ودروعهم يتشحون السواد يتحركون بين الشوارع بخطة عسكرية مدروسة متجهين إلى أماكن بعينها ...
الشوارع خالية تماما من المارة سوى مكان واحد قد ارتفع فيه صوت المسجل بآيات قرآنية وتجمع بعض الرجال يحملون المشاعل والكلوبات استعدادا لجنازة فاطمة بنت الأسطى سعد الحشاش وحولهم بعض الجنود فلقد كانت الخطة تعتمد على حادث مقتل فاطمة لتسلل رجال الامن إلى البارودية ألا ان الخطة قد تسربت بطريقة ما إلى خالد ورجاله الذين اختفوا تماما..
الليلة لم تبدا بعد، التوتر يخيم على كل منزل بالبارودية فالحصار مضروب على جميع الشوارع ما عدا طريق المقابر المعد للجنازة تحت نظر الشرطة، وهناك وفي ركن قصي داخل ضريح ابوالحمل لازال محفوظ يجلس متسمرا ضاما ركبتيه إلى صدره ساكنا لا يبرح يتأمل النصب المكسو بالأقمشة الخضراء واما ناظريه شريط من الذكريات القريبة البعيدة، وأحلام ما لبثت أن استحالت إلى كوابيس سوداء!
أين هو ذلك الشيخ ذو الهالة الجليلة الآن لينظر ما هو فيه؟
هارب من المجهول مشرد جائع لا يجد ملجأ سوى ضريح أصم لرجل مجهول حتى إسمه لا يشير سوى إلى حمول من القسوة ..قسوة العالم..
ظلام دامس تتهافت إلى أذنه أصوات سيارات الشرطة آتية من البارودية حيث نسج أماله وأحلامه، لا يعرف ماذا يدور فقط أمه العجوز أمام مخيلته تتقوقع على ذاتها فتبكي بحرقة فراق وحيدها!
أشياء كثيرة الآن يجب مراجعتها، مباديء كبيرة وضعها لنفسه يجب أن يعيد النظر فيها..
"ستظل وحيدًا أبد الدهريامحفوظ، فلا أنت لهذا الزمان ولا الزمان لك، حائر بين ما قرأته في صفحات الكتب وبين ما تحياه!"
صوت يتردد في رأسه يعرفه تمامًا إنه والده رحمه الله..
تنزلق عبرات متسللة من بين جفنيه، هو وحيد ضعيف مشاعر لم يختبرها يوما فأين هم هؤلاء الصبية ليخبرهم إنه كان مخطيء فيما يخبرهم به

ساعة العصاري!
وفي غمار أفكاره البائدة كان موكب مهيب يتحرك صاعدا عبر درجات السلم الحجرية المرتفعة المؤدية إلى شارع الجبانة الشرقي عبر مقام ابوالحمل وسط همهمات الذكر والترحم التي تشق سكون الليل وصوت الخطوات المهرولة تتسابق لدفن المقتولة ..
بهدوء وعبر نافذة صغيرة جدا نظر محفوظ ليرى ذلك المشهد ونيران الكلوبات والمشاعل تتراقص لتضفي صورة مهيبة للصورة..استطاع تمييز عدد لا بأس به من الوجوه من أهالي البارودية لكن من بين العشرات كان وجه واحد يهمه إنه الجعار الذي تظاهر بالخشوع وهو يتوسط المشيعين وفي يده عصاه الأبانوسية ..
عندما لمح محفوظ وجه الجعار تملكته حالة عجيبة لم يستطع تفسيرها فهي خليط من الغضب والثورة امتزجتا بشهوة الإنتقام وكذلك الفضول هذا الرجل شيطان أشر، إنه شريك في هذه الجريمة فهو من فرض سلطة المناخلية وجعلهم خارج السيطرة، هو من دفع صبري واعطاه الشجاعة لارتكاب جريمته! تحت ستار المناخلية يفعلون أي شيء وكل شيء ..
مع اخر رجل بالموكب الجنائزي تسلل محفوظ بهدوء خلفهم مستترا بالظلام وبعض الجدران متتبعا الجنازة حتى توقف الجمع عند إحدى الترب وكان التربي قد اعد العدة وقام بتهيئة القبر لاستقبال الوافد الجديد فقام بفتح القبو وتسوية التراب..
تابع محفوظ المشهد من خلف جدار مرتفع لاحد الأحواش يطل على المقبرة وهو يتمتم بالرغم منه بالشهادتين والترحم على المتوفاة وفأة ارتبك الجميع فهنا سمع الجميع اصوات طلقات نيران كثيفة وفي السماء انعكاس شرارات قنابل الدخان من رجال الشرطة ..
أصوات الطلقات تزداد شراسة وتختلف اصواتها مما يعني أن حربا طحون تدور هناك الأن ..
ففي هذه اللحظة كان رجال الجماعة يهاجمون رجال الشرطة عبر الاحراش فلقد نفذوا خطة محكمة فعند اختفاءهم قد استعدوا تماما ببعض الأسلحة التي ظهرت فجأة في أيديهم واتخذوا من الأحراش ساترا لهم قبل اكتمال الحصار جعلهم بعيدين عن اعين رجال الشرطة التي كانت تمشط البارودية في هذا التوقيت بحثا عن أفراد الجماعة والذين استخدموا عاملي الظلام والمفاجأة وهاجموا رتلا من رجال الشرطة لكن الجنود كانوا اسرع في تلقي المفاجأة وتحصنوا بسياراتهم المدرعة ليطلقوا نيرانهم بغزارة تجاه الأحراش قبل يرفع جنديا بندقيته القاذفة للقنابل بزاوية محسوبة إحداها فتسقط

بين الأحراش وسرعان ما تشتعل النيران لتحيل الأحراش إلى قطعة من الجحيم تحيط خالد ورجاله فيصرخ هذا الأخير برجاله قائلا
"انتشروا على الأطراف بعيد عن النار"
لكن هيهات حيث تسلل عدد من رجال الامن باقنعتهم وثيابهم السوداء في تشكيل عسكري دقيق ويطلقون وابل من النيران ومع صراخ خالد استطاع احد الجنود تحديد موقعه ليطلق عدة طلقات في ذات الاتجاه كانت كفيلة أن يسمع الجندي صرخة ألم تؤكد اصابته لهدفه..
اصوات اطلاق النار وانعكاس وهج الحرائق في الأحراش كان كفيلا بان تنفض الجنازة سريعا ويهرول المشيعون عائدين إلى منازلهم بسرعةحتى دون الدعاء للميت ..
ولكن محفوظ من موقعه لاحظ ان الجعار لم يكن ضمن المغادرين بسرعة بل اقترب إلى التربي وحدثه بصوت منخفض قبل ان يبتسم الأخير فينصرف الجعار..
الفرصة مواتية الأن الجعار وحيد بين المقابر وقد هرع الجميع عائدين!
فكر محفوظ كثيرا هل يفعلها؟
إن كان عليه الفرار فليكن فراره ذو قيمة ليخلص البارودية من شر هذا الشيطان وبتردد تحرك محفوظ على بعد مسافة آمنة خلف الجعار الذي اخذ بدوره ينحرف داخل بعض الطرق الجانبية للمقابر ورغم الظلام إلا إنه كان يعرف طريقه جيدا ..
وللحظة التفت الجعار خلفه فاختفى محفوظ خلف جزع شجرة عملاقة احترق جزءه السفلي فستره الظلام عن عيني الجعار..
وفجاة سمع محفوظ صوتا جعل كل فرائصه ترتعد دفعة واحدة..
****

صوت أنات الم وخطوات متعثرة تصدر صوت خرفشات على اثر اوراق اشجار الكافور الجافة ..
بحذر تراجع محفوظ إلى مصدر الصوت وهو ينصت في ذلك الظلام الكاحل فالصوت ليس بالبعيد لكنه كذلك لا يرى اثرا لأحد ما ..
تسارعت دقات قلبه بشدة فالمكان مهيب بحق وظلال الكافور تضفي مزيدا من الرهبة والوحشة، فأي رعب يتملكه وهو بين احضان سكون الموت وشواهده..
كان الصوت ياتي من خلف احد الجدران متوسطة الارتفاع لاحد الأحواش لكن المدخل على بعد شارع بين المدافن، شارع من تلك الشوارع الضيقة الأشبه بثعابين تتخلل شواهد المقابر واقبية الدفن ..
بصعوبة استطاع ان يصل محفوظ إلى مصدر الصوت وقد كان السكون قد خيم تماما واصوات الطلقات قد توقف تقريبا ولم يتبقى سوى ظلال وهج حرائق الاحراش الشوكية التي لا زالت تشتعل فتنعكس ظلالها البرتقالية على المكان..
بخطوات حذرة دخل محفوظ إلى حوش مربع يتوسطه مشهد قبر مرتفع على طرفيه خشبتين فبدتا في الظلام ققرني شيطان مريد، بالإضافة إلى عدة اقبية صغيرة كانها اكوام من التراب..
في ظل الظلام كانت الرؤية شبه مستحيلة حتى انعكاس الحرائق لم يساعد عينيه على اختراق الظلام خاصة ان الحوش تحيطه جدر متوسطة الارتفاع تمنع الضوء من دخوله، كما ان تلك الشجرة المائلة الكثيفة التي تطل عبر حوش مجاور قد ساعدت في تكثيف الظلام..
توقف محفوظ وهو يرهف السمع وقد كاد الصوت يتلاشى فيبدو ان صاحب الصوت قد كتم انفاسه عندما شعر باقترابه لكن صوت انفاس كان كافيا ليشق محفوظ طريقه بنفس الحذر إلى خلف المشهد المرتفع ليلمح كومة بجوار المشهد تماما عرفها الاخير على الفور إنه شخص ما يتكيء على المشهد الحجري وقد ساعدت ملابسه البيضاء على رؤيته ..
صاح محفوظ في الرجل المتكور على نفسه
"مين؟ انت مين؟"
رد الرجل الذي اختفت ملامحه تحت وطاة الظلام وبصوت هزيل
"ارجوك ..انا متعور وشكلي بموت"
مع الكلمة الاخيرة تشجع محفوظ ليقترب إلى الرجل يتحسسه وهو يقول

"صوتك مش غريب انت مين؟"
بصوت متهدج وانفاس تخرج بصعوبة
"انا خالد...خالد ابوذراع"
صرخ محفوظ متعجبا
"خالد؟! ايه اللي حصلك؟"
قال خالد
"انت مين صوتك مالوف إنت...إنت"
لم يدعه محفوظ يكمل جملته وقال
"محفوظ..انا محفوظ ياخالد اللي خليته يقضي الليالي في الترب زي المطاريد والمجرمين"
كانت انفاس خالد مرتفعة وصدره يرتفع وينخفض دليلا على صعوبة التنفس وهو يقول بضعف شديد
"سامحني يا محفوظ..ارجوك سامحني"
"قولي بس ايه اللي عمل فيك كدة؟"
"البوليس هجموا علينا وانا اتصابت بس قدرت اهرب على هنا الموت ارحم من انهم يقبضوا علي"
تحسس محفوظ جسد خالد محاولا الوصول إلى موضع الإصابة وقال
"انا مش شايف حاجة، خليك هنا هروح اشوف حاجة انور بيها علشان اطهر لك الجرح"
قالها وهو يهم واقفا لكن قبضة فولاذية قبضت على رسغه وخالد يقول بنبرة متالمة باكية
"انا عارف انك بتكرهني يامحفوظ ومش هلومك على دا.. لكن عاوز أقولك إنك كنت صح وانا اللي غلط كنت فاكر الدين الصحيح بالقتل والعنف وإن الذقن والجلابية القصيرة هيوصلوني لربنا"
ربت محفوظ على قبضة خالد الممسكة بمعصمه وقال
"حاول تهدي نفسك علشان النزيف هروح اجيب نور واجيلك"
لم يفلت خالد ذراع محفوظ لكنه قال
"ماتتعبش نفسك انا كدة كدة ميت بس قولي انك سامحتني ارجوك"
"ياخالد انا طول عمري عايش على الحياد..لا عمري كرهت حد ولا اقدر اقول إني حبيت حد ..قلبي عمره ما اتعلم يكره حتى اللي أذوني معرفتش اكرههم، هتصدقني لو قلتلك إني حتى مش بكره الجعار نفسه؟! الشخص الوحيد اللي كرهته هو انا..كرهت محفوظ نفسه اللي فضل قافل على نفسه وعايش اوهام مالهاش وجود غير في عقله هو وبس، الدنيا من حواليه

جهنم وهو صانع لنفسه جنة وهمية هو بس اللي عايش فيها علشان كدة اتصدم لما شاف الحقيقة، غبي وفجاة فهم الفهم نعمة لكن معايا انا كانت نقمة"
قالها وربت مرة اخرى على قبضة خالد التي خفت تدريجيا في حين قال محفوظ
"ثواني وراجعلك"
بسرعة انطلق محفوظ إلى قبر فاطمة المدفونة توا فلقد تذكر ان الرجال قد تركوا بعض المشاعل هناك اثناء اسراعهم مع صوت طلقات النار فلعله يأتي بقبس من نار، ولكنه ما إن وصل إلى باب الحوش حتى التقطت أذناه صوت شخص ما ...
لكن هذه المرة صوت شخص ينهمر في البكاء للوهلة الأولى ظنه محفوظ احد اقارب المتوفاة لكنه تسلل ببطيء خلف احد المشاهد وعلى ضوء مشعل مغروس في الارض لازالت ناره تعطي بصيص من الضوء رغم خفوتها والذي يبدوا ان احدهم تركه خلفه استطاع ان يرى شابا راكعا امام شاهد القبر يبكي بحرقة وهو يخاطب الميتة
"ليه عملتي في وفي نفسك كدة يافاطمة، انا بحبك وكان نفسي تكوني لي انا وبس، يعني هو الدود احسن مني لما روحتي تنامي في حضنه وتسبيني؟ التربة عندك احسن من صبري؟ قتلتلك ايوة يافاطمة ما كنتش اقدر استحملك لحد غيري مهما حصل..بس خلي بالك انت اللي قتلتيني الأول قتلتيني مرتين مرة لما رفضتيني ومرة لما روحتي لحد غيري، وادي النتيجة انتي تحت التراب ميتة واكيد دلوقتي بتضحكي علي وبتسخري مني، وانا هنا ميت ميت هعيش هربان بقية عمري يا هتمسك ويشنقوني ومن غير مشنقة ولا سجن انا مت من زمان يافاطمة انا ميت زيك بالضبط بس انت ارتحت مني ومن كل حاجة لكن انا بتعذب ..بتعذب بيكي وبحبك"
قالها وانفجر باكيا ينتحب وينتحب..
عرفه محفوظ بالطبع إنه القاتل صبري الشيردي.
للحظات فكر محفوظ في مهاجمته والقبض عليه، لكنه تذكر خالد المصاب الذي يصارع الموت في هذه اللحظة،
تملكته الحيرة ما بين انقاذ مصاب وما بين تحقيق العدالة والقبض على قاتل هارب!
لم تطل حيرته كثيرا عندما تهافت إلى اذنه صوت شخص أت يقترب وهو يسعل بشدة ..
يبدو ان صبري ايضا تنبه للصوت ففزع قافزا على احد الاسوار المنخفضة

ليختفي في حين دس محفوظ جسده بين بعض الشواهد ليرى من القادم في تلك الليلة التي بدت بلا نهاية، لكن ما رأه بعد ذلك كان مخيفا مخيفا بحق...

****

دلف إلى الحوش رجلين احدهم يرتدي صديري من القطن وسروال داخلي طويل من تلك المشهورة لدى الفلاحين وهو يحمل في يده فأس، اما الثاني فكان شاب طويل القامة اشعث الشعر ذو ثياب مهترئة، وعلى الضوء المحتضر من المشعل عرف محفوظ الرجلين على الفور ..
إنه التربي الذي كان هنا منذ سويعات قليلة يقوم بمراسم الدفن لقد راه عندما كان يراقب الجنازة، اما الثاني فهو عادل زلطة وهو اشهر من نار على علم لأهالي البارودية..
لكن ما ادهش محفوظ حقا ما الجامع بين الرجلين ولماذا عاد التربي بفأسه في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟
لكن تساؤلاته لم تطول عندما اشعل التربي كلوب كيروسين بعود ثقاب قد اشعل به سيجارته ثم ناوله الكلوب إلى زلطة ليمسك به في حين رفع التربي فأسه وبدا في الحفر ولكن الغريب إنه يحفر قبر فاطمة التي لم تقضي في قبرها اكثر من ساعة او ساعتين...
لربع الساعة تقريبا ظل التربي يقوم بالحفر حتى وصل إلى باب القبو فالقى بسيجارة احترقت حتى شفتيه وعالج الباب فاقترب زلطة بالكلوب ليضيء الطريق امام التربي الذي اختفى بجسده داخل المدفن لدقيقة قبل ان يصيح بزلطة الذي حتما لم يسمعه لكنه يحفظ مهمته حيث وضع المصباح ارضا ونزل خطوة إلى اسفل الحفرة المؤدية إلى المدفن ثم بدا الصعود بصعوبة فلقد كان يحمل حملا ثقيلا ..
ضيق محفوظ عينيه ليستطيع تبين ما يخرج به زلطة ليشهق من هول المفاجاة..
جثة باكفانها البيضاء يجذبها زلطة قبل ان يتبعه التربي خارجا من المدفن ليعيد كل شيء كما كان فيلتفت إلى زلطة ويضحك قائلا
"المعلم هيتبسط قوي الليلة ياواد يازلطة"
هز الاخير راسه موافقا وكانه فهم ما قيل ليتعونا كلاهما على حمل الجثة والإنصراف..
غصة بحلق محفوظ وهو لا يصدق ما راته عيناه منذ لحظات، لماذا يخرج التربي جثة مدفونة حالا وما دخل زلطة العبيط بالأمر!
واي معلم سيكون سعيدا الليلة؟
أسئلة شائكة تطيح بإدراكه وحالة من الغثيان تجبره على إفراغ معدته فورا لكنه قاومها بصعوبة بالغة ..

تماسك بقدر الأمكان وقد نسى تماما امر خالد الذي كان بالفعل قد لفظ اخر انفاسه، فقرر محفوظ ان يتبعهما لكنه قبل ان يتحرك لمح شبح صبري الشيردي والذي كان يتابع بدوره ما يحدث يقفز عبر القدار الذي اختفى خلفه ليسرع خلف الرجلين بحذر..
وبحذر اكثر تبعهم محفوظ الذي كان متشوقا لمعرفة ما يحدث ليلا في المقابر ..
لفت انتباه محفوظ ان الرجلين يسيران في نفس الطريق الذي اتخذه الجعار سابقا قبل ان ينشغل هو بخالد لكن هذه المرة لن يغيبا عن ناظريه وكذلك صبري الذي يتبعهما من بعيد بحرص..
في النهاية وصل الجميع إلى حوش متسع نظيف بشكل لافت للنظر وما يلفت النظر اكثر هي تلك الغرفة المضاءة هناك ..
كان محفوظ حريصا على ألا يراه صبري الذي تسلل إلى نافذة مرتفعة تطل على الغرفة..اما محفوظ والذي قرر التخلي عن حذره اقترب اخيرا من صبري الذي فزع بشدة وكاد ان يصرخ لولا محفوظ الذي وضع كفه على فم الاول وهو يشير إليه بالصمت ...
تبادل كلاهما النظرات الصامتة قبل ان يعيدا النظر داخل الحجرة..
كانت النافذة تسمح برؤية الجدار المقابل للباب وركن الحجرة فقط اما الجدار الذي تطل منه النافذة فكان مستحيل الرؤية لكن كلاهما عرفا ان شخص ما جالس إلى هذا الجانب، في حين وضع زلطة والتربي حملهما على فراش صغير في الجانب المرئي وبعدها نظر التربي إلى الجدار المختفي اسفل النافذة وقال
"ليلتك سعيدة ياسيد الكل، اسيبك انا بقى تعيش"
انصرف التربي لكن الغريب ان زلطة لم ينصرف وهنا تحدث الرجل الخفي فيكاد الشابين ان يشهقا بمجرد سماع الصوت إنه الجعار دون شك الذي حادث زلطة الذي جلس امام نرجيلة يرص بعض قطع الفحم المشتعلة
"تصدق ياواد زلطة ان الشيردي عمل معانا احلى واجب بعملته السودا دي،بسبب اللي عمله البوليس دخل البارودية وخلصنا من الدقون ومش بس كدة دا قدملي احلى هدية كمان"
نهض الجعار في هذه اللحظة ليستطيعا رؤيته بقامته الفارهة وجسده الضخم وهو يخطو نحو الجثة المسجاة على الفراش داخل كفنها فيمرر راحته عليها من قمة رأسها إلى اغمس قدميها.
لاحظ محفوظ ان جسد صبري يرتجف بشدة وان حالة هياج تكاد تطيح به فضغط على معصمه طالبا الهدوء ..

كان الجعار في هذه اللحظة يزيح الكفن عن وجه جثة فاطمة لتبدو جميلة هادئة شاحبة كما هم الموتى ..
دمعات تتساقط من عيني صبري وهو يرى وجه حبيبته فيضمه محفوظ محاولا تهدئته حتى لا ينكشف امرهما..
اشار الجعار إلى زلطة اشارة معينة فابتسم الاخير وحمل النرجيلة وخرج مبتعدا عن الغرفة واغلق الباب خلفه ..
تعجب كلاهما مما يحدث لكن ذلك التعجب استحال إلى صدمة عندما رأيا الجعار يخلع جلبابه ويجلس بملابسه الداخلية إلى جوار الجثة التي تحسس كل جزء فيها وهو ينزع الأكفان قطعة تلو الأخرى فينكشف جسدها الذي سرعان ما أصبح عاريا تماما والجعار يلثم شفتيها ثم ينحدر إلى نهديها فلتقمهما كانه يرضع منهما و يخلع ملابسه تماما ليصبح كما ولدته امه وهو يصعد الفراش مستعدا لفعلها..
في هذه اللحظة كان محفوظ قد غاب تقريبا عن الوعي وقد اصابه شلل حقيقي وهو يرى ذلك المشهد المقزز، فهذا المجرم قد تخطى كل شيء في حين ان صبري قد فقد كل اعصابه ولم يستطيع الإحتمال فقفز ليلتقط حجرا صلبا ويهرع بكل ما اوتي من قوة إلى باب الغرفة الخشبي ليدفعه بعنف ..
وما إن وقف صبري مواجها للجعار العاري الذي جحظت عيناه عن اخرهما فزعا ومفاجاة وهو يرى صبري الشيردي امامه ليكشف سره القديم
صاح صبري بكل غضب الدنيا
"بتنجسها ياكلب يا ابن الكلب بعد ما ماتت؟"
قالها واندفع إليه مهاجما بالحجر في يده ..
استطاع الجعار ان يمسك بمعصم صبري المندفع بالحجر لكنه اطلق شهقة مفاجأة وعيناه تكادان تقفزان من مقلتيهما قبل ان يتهاوى ليظهر من خلفه عويس وفي يده خنجر قد لمع نصله غارقا بدماء الجعار الذي سقط عاريا فوق جثة فاطمة العارية ..
نظر صبري إلى عويس الذي قال
"انا كنت متربصله من بدري "
"انت كنت عارف اللي بيعمله مع الميتين؟"
هز عويس راسه نفيا وقال
"ما كنتش فاكره بالنجاسة دي اهو يستاهل اللي حصله..
شاهد محفوظ كل ما حدث وحقيقة ما رأه كان صعب أن تحتمله اعصابه وان يتخيله عقله ..

لذلك رحل في صمت ولم يعرف احد اين ذهب، ولا ماذا حدث
إختفى محفوظ... وإلى الأبد....
لكنها ستظل البارودية قائمة يروي كل حجر فيها حكايته...حكاية محفوظ..
****

تمت بحمد الله

عمرو ممدوح
الفيوم
11-2-2023